ثورة درب عِشرة

اســـــم العمـــــل	:	ثـــــورة درب عِشـــــرة
النـــــــــوع	:	مجموعـــــة قصصـــــية
تـــــــــأليف	:	محمـــــــد شـــــمروخ
تصـــميم الغـــلاف	:	حســـــــين جبيـــــــل
إخـــراج داخلـــي	:	عبـــــدالقادر فـــــايز
الطباعـــــــــة	:	اتيليـه تـاتش – المحروسـة
الناشـــــــــر	:	الـــدار للنشـــر والتوزيـــع
المـــــدير العـــام	:	محمـــد صـــلاح مـــراد
تليفـــــــــون	:	٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧
البريـــد الإلكترونـــي	:	eddar_press@yahoo.com
فـــــيس بـــــوك	:	www.facebook.com/eldarpublish
رقـــــم الإيـــــداع	:	٢٠١٧/٢٥٢٩
التـــرقيم الـــدولي	:	I.S.B.N.: 978-977-702-176-0

ثورة درب عِشرة

مجموعة قصصية

محمد شمروخ

الدار
للنشر والتوزيع

٢٠١٧

١ـ ثورة درب عشرة

هكذا.. اسم الدرب "درب عشرة" وهو في مجاهل ما وراء حي السيدة زينب.

أصر زميلي في الكلية والمدينة الجامعية مراد بهيج، أن يعرفني على الدكتور عماد سري الذي يشارك مراد ويعاضده في كل آرائه الضاربة في صميم أساس أم المجتمع..

هي فعلا ضاربة!.

ومن هو عماد سري؟!.. آسف.. الدكتور عماد سري.

– ولا هو دكتور ولا نيلة.. فهو ليس أكثر من طالب دراسات عليا يحضر لرسالة ماجستير في قسم علم النفس أو فلسفة.. وكلها آراء ضاربة!.

لكن مراد مصر على أن عماد هو فيلسوف مصر المجهول في درب عشرة!.

فهو ومراد يؤمنان بآراء عالم نفس أو فيلسوف ألماني لا أعرفه أظن اسمه "رايتش".. وهما يبشران بتعاليمه التى ستحقق السعادة لكل البشر.

والعهدة على مراد لأنه يقول إن رايتش يرى سعادة الإنسان في الانفلات الجنسي.. يعنى نمارس الجنس بدون أي قيود!.

أي قيود؟!.. أي قيود؟!.

فقط تحريم نوعين من العلاقات الجنسية.. الدعارة والاغتصاب.

لا والله.. فيه الخير!.

بالتأكيد الكلمة كانت سخرية في سري.. فلا مجال للهزل عند وضع قواعد صارمة لمستقبل الإنسانية ولو في الهلس!.

خاصة أن هذا هو مشروعهما الفلسفي الفكري الحضاري!.

وكما ينتظر الناس في كل عقيدة تقريبا "البطل المخلص" الذي يملأ الأرض عدلا بعدما ملأت جورا.. فهما ينتظران "القواد البطل" الذي يملأ الأرض إباحية بعدما ملأت كبتا!.

كمل يا عم مراد كمل؛ فالمشوار طال منذ تركنا موقف أتوبيس ٥٠١.. ويبدو أننا تهنا، فقد تكرر السؤال عن درب عشرة وكأنه في آخر نقطة في القاهرة السرية التى لا يعرفها الكثيرون من أهل مصر.

والدرب طويل ويتلوى كعادة غالبية دروب القاهرة القديمة.

وفي كل منحنى تجد ما يثيرك!.

مشـــاجرة عدد المتفرجين فيها أكثر من المشـــاركين.. وأتحداك أن تميز من هم وما هي معركتهم وعلى أي شـــيء تعاركوا، حتى يبدو وكأن المشـــاجرة بين أهل الدرب كله، ثم لا تلبث أن تجد زغاريد في منحنى آخر وكأن الفرح فرح الحي كله!.

وامض في طريقك لا شـــأن لك، وإذا "ثبتك" أحد بمطواة قرن غزال فقل إنك سـتزور فلانا واذكر اسـم من أنت ذاهب إليه لمن ثبتك، فقد يتركك لحال سـبيلك دون أذى وقد تأخذه الشـهامة ويوصـلك بنفسـك إلى البيت وحتى إذا تجاوز ولم يرع تقاليد الضـــيافة وأخذ محفظتك؛ فســـوف تعود إليك قبل أن تكمل أول كوب شاي في بيت مضيفك!.

وقد تجد من يعزم عليك بحرارة وكأنه يعرفك ويرســـل معك الســـلام لصديقك الذي قصدت، احترس من أن تبدي أي اشمئزاز من أي شـيء فهنا لا يكرهون شـــيئا أكثر من الكبر والعنطزة، فهاتان الخصـــلتان قد تبيحان دمك!.

هنا الخصومة شرسة وبلا مبرر والمودة حارة بلا مبرر أيضا.

والحب بلا مبرر، فقد تصـعقك نظرة من عيون سـوداء أو عسـلية عميقة على وجه يضـيء مثل القمر، يزيد من لمعانه الملس الأسـود الذي يلف الجسم.

واحترس.. فلن تظفر وأنت عابر سبيل، إلا بمثل هذه النظرة التى تقتحمك بنعومة وتربك لديك المقاييس الجمالية والأنثوية، فقد تفاجأ أن وراء شفتيها لسان ولا "الفرقلة".

باختصار.. ستعرف أن للجمال مغزى آخر في درب عشرة.

ولكن لزمًا ومن كل بد.. أعرف السر في الاسم؟!.

ولا سر ولا تر.. فأصل القصة يكمن في ضريح صغير جدا وقبته يمكن أن تلمسها بيدك من الخارج ومدفون فيه الشيخ عشري وزوجته الشيخة عِشرة.

وقيل إنهما من الصعيد وكانت "عِشرة" بنت ناس غلابة، لكن جمالها يفوق الوصف وعشري كان ابن عمدة كبير.

ودون الدخول في تفاصيل.. هربا معا إلى القاهرة ولكن الفتوات خطفوا عشرة الجميلة.

فقد سحرهم بياض وجهها الذي يلوح وراء البردة الصعيدية، فهموا باغتصابها لولا أنها استغاثت في سرها بالسيدة الطاهرة ابنة الأطهار، فقالت: "يا طاهرة نجيني ومن الدنس طهريني".

وببركة أم العواجز؛ جاءت ريح عاصف أعمى ترابها الفتوات وأطاحت بكبيرهم فقصمت ظهره وأصابته بالشلل!.

ورفض عشري وعشرة أن يسكنا القصر الذى عرضه عليهما السلطان ساكن القلعة في ذاك الزمان.. وفضلا السكن في غرفة صغيرة على أطراف القرافة!.

وماتت عشرة وبعدها مباشرة مات عشري كمدا عليها ودفنا في الغرفة التى بنيت عليها قبة وأراد السلطان الجديد بناء جامع كبير وضريح لهما، فاعترضه شيخ مجذوب كان صديقا للشيخ عشري وقال له: يا سلطان لا تفسد آخرتهما بزخرفة القبور، كما أراد أبوك أن يفسد دنياهما ببهرجة القصور!.

ومن يومها الدرب تسمى باسم درب عشرة!.

هل عرفت السر في الاسم المثير والقابل للتأويلات؟!.

وكل حسب نيته وخصوصا لو كانت نية سوداء!.

بالضبط مثل نية مراد وعماد في دعوتهما التى يتحينان الفرصة لنشرها؟!.

وفي أول شقة على يمينك في البيت القديم، دار حديث طال بيننا.. والسجائر أوشكت على النفاد وشاي فى شاي في ليمون وينسون، وكالعادة تطرق الحديث إلى السياسة والدين وحروب الردة ومقتل سيدنا عثمان والفتنة الكبرى!.

كنت مصـرًا على أن أسـباب أفكار مراد الإلحادية، ليسـت بسـبب إيمانه بالمادية الجدلية ولا بسـبب اقتناعه بصـحة أبحاث تشـارلز داروين في رحلته التاريخية على ظهر السفينة "بيجل".

وتساءلت بيني وبين نفسي:

– أليس عجيبا أن الله هو أكثر ما يشـغل بال الكافرين به حتى أعتاب الجنون؟!.

سـر إلحاد مراد عرفته من تكرار زيارتي لغرفته في المدينة الجامعية، فالغرفة لها رائحة تفضح ممارسات مراد السرية.. ورغم أني أصلحت له شيش النافذة ليقوم بتهوية الغرفة، إلا أن الرائحة ظلت كما هي.

– يا مراد اغسـل الملايات وشـمّس المرتبة والمخدة وهوي الغرفة يا أخي!.

والرائحة نفسها أو قريبا منها شممتها في غرفة صديقه الفيلسوف!.

جنس.. جنس.. جنس.. في كل مكان جنس وفي كل زمان جنس.. ولكن الناس تؤمن وتكفر بعيدا عن كل ذلك.

إلا أن جلستي مع مراد بهيج وعماد سري، جعلتني أرى طفرة في الفكر الإلحادي العربي تتشكل على استحياء في درب عشرة.

وفتح باب الشقة.. فدخل شخص ذو لحية كبيرة بملابس بيضاء، عرفت من مراد أن هو الشقيق الأكبر لعماد، فألقى السلام بابتسامه سمحة من خلال باب الغرفة الموارب المجاور لباب الشقة ومن نظرة سريعة على وجهي الشقيقين عرفت أن بينهما خصومة ما.

هل من الذكاء اكتشاف هذا؟!.

يعنى واحد يبدو من ملابسه أنه سلفي أو صوفي أو جماعة تبليغ ودعوة، ماذا يمكن أن يكون بينه وبين أخ له يريدها هلسا وإلحادا؟!.

وهمس مراد عندما ذهب عماد ليحضر صينية المشروبات التى لا تكف أمه عن إتحافنا بها بين الحين والآخر: هذا هو الشيخ عبادة سري شقيق عماد الكبير وأساس عقدته في حياته!.

وجاء صوت حنون من الخارج: يا عماد ما تعزم على أصحابك يتعشوا.

إنها الحاجة أم عبادة وعماد التى لم نرها.. آه.. صحيح!.. لماذا لا يريد عماد أن نرى أمه وهو يحمل في ذات الوقت دعوة التحرر الجنسي؟!..

وماذا لو عماد عرف مثلا أن أمه بعد وفاة أبيه؛ ترغب في الزواج الحلال من رجل آخر؟!.

ولكن من يجرؤ على أن يوجه هذا السؤال وهو لا يكف عن سرد تبريرات معتقداته في ضرورة التحرر الجنسي؟!.

وفجأة قطع النقاش الدائر حول الأوضـــاع في مصـــر، صـــراخ حاد وســـباب.. وفي لحظات بدا أن معركة قد احتدمت، فابتســـم عماد في حرج وتمتم:

"خناقة عاديه ولا داعي للقلق".

لكن الأصوات العالية تنفى أنها خناقة عادية.

رجال ونساء وأطفال يصرخون وخرج الشيخ عبادة ليستطلع ولكنه عاد مكفهرا مع أول سب دين سمعه في الخناقة!.

أما عماد فدعانا للفرجة من مكان آمن على الســـطوح وكان المشـــهد رهيبا.

أرتال من الناس يخرجون من الأزقة بالشـوم والسـنج تعضـدهم قوة من الأطفال والنساء أعلى أسطح المنازل بالزجاجات والطوب كغطاء جوى، تقابله قوى مقاومة عنيفة من الجانب الآخر.

واسمع السباب

ـــــ يا مرة يا قارحة يا... وكمان ليكي عين بعد ما مسـكتك مع جوزى يا.....

فترد الأخرى

ـــ يا ولية يا قرشانة يا....، ما هو لو كنتى مكيفاه ولا حتى مكفياه، ما كانشي بص لغيرك!.

يا ســلام.. منتهى الشـفافية.. إنه مجتمع المكاشـفة الحقيقي الذي يريده رايتش ومريدوه.

انظر يا عم عماد جيرانك يكفرون ويعلنون كفرهم بســـب الدين دونما حاجة لاعتناق أي من تلك المذاهب الفكرية!.

فهكذا الخناقات الشعبية، تفتتح بسب الدين.. بينما جلسات المصالحة، تختتم بقراءة الفاتحة!.

ووطيس المعركة يزداد سخونة حتى كادت تصيبنا بعض الزجاجات.

وتساءل مراد بعصبية وتوتر: أين الأمن مما يحدث؟!.

بالطبع لو دخلت سيارة شـرطة واحدة، فسـوف تسـحق هي ومن فيها، فسياسـة التدخل الشـرطي في مثل هذا الموقف قائمة على مبدأ "خليهم لحد أما يتعبوا ويتهدوا"!.

ثم إنه لا أحد في المعمعة يريد الشـــرطة، فبمجرد ظهورها ســـوف تجد نفسها الطرف المرفوض من كل الأطراف التى ستتحد ضده!.

وفجأة ستجد نفسها الهدف الرئيس في المعركة.

ثم إن ظهورها سـوف يثير أطرافا أخرى قد لا تكون لها صـلة مباشـرة بالخناقة، ولكن بسبب صراعها الأبدي والأزلى مع الشرطة!.

وأنباء بدأت تتوالى عن قتلى وتمر من تحتنا وجوه وأجسـاد غارقة في الدماء.. الموضـوع دخل في الجد وأظلمت البيوت بعد أن تطايرت زجاجات الكونكيلا التى يسميها المثقفون بالمولوتوف.

وتمتمت ليسمعني عماد: كل هذا سينتهي بالعتاب في القسم والعناق في الحجز والتنازل في النيابة.. وتنقضي الدعوى بالتصالح!.

وبدأت حرائق تشتعل في النوافذ والشرفات بسبب قذف الكونكيلا.

: يا ناس حرام عليكم الشارع ضيق على المطافي.

وشـائعات عن تحضـير أحد الطرفين أنابيب بوتاجاز لتفجير الدرب بعد الاستعانة بأطراف من خارجه.

وكل هذا وعماد يبدو متماسـكا وبدأ يتحدث عن تخلف المجتمعات والصراع بين الطبقات والثورة التى لابد أن تقوم!.

: بالذمة يا عماد تتلهي وتنقطنا بسـكاتك.. المنطقة تشـتعل.. وأنت مصـر على غيبوبتك الاختيارية، وحتى لو ثاروا، فلن يفعلوا أكثر مما نراه يحدث الآن في درب عشرة!.

وفجأة هدأ كل شيء مع أصوات بعيدة لسيارات إسعاف أو شرطة أو مطافي وبدأت سحب الرعب تزول مع الدخان مع محاولات قصيرة النفس لإعادة الاشتباكات بشكل متقطع.

وهبطنا من السطوح منهكي الأعصاب وكأننا شاركنا في المعركة بما هو أكثر من الفرجة!.

ومن وراء النافذة المغلقة وراء أكداس الكتب المتربة، ترامت أصوات الناس فاضطر عماد لفتحها، ليستطلع ما يحدث على أرض درب عشرة.

"فيما يبدو أن موضع هذه الكتب المرصوصة بلا عناية، هو المأساة الحقيقية لعماد سري وكل عماد سري، فهى تحجب عنهم النافذة ليكتفوا بإدمان ممارسة الاستمناء الفكري والاستحلام السياسي، فتختلط خيالاتهم المثيرة بواقع مرير بينما عيونهم مغمضة ارتقابا لمتعة أنهكهم انتظارها بلا فائدة"!.

"كلام آخر أحدث به نفسي فقط، فلقد استشعرت أن هذه الكلمات الساخرة يضيق بها دعاة الحرية المطلقة"!.

ولكن كانت المفاجأة بعد فتح النافذة: الدرب هدأ وعادت إليه الحياة وكأن شيئا لم يكن!.

وتركنا المنزل رقم ٣١ درب عشـــرة ومازالت الرائحة الزنخة في غرفة عماد وروائح المنحنيات في الدرب، باقية في الذاكرة الأنفية.

ولكن الرائحة انقطع أثرها فجأة.. ذلك عندما مررنا على ضريح الشيخة "عشرة"، فوجدناه مضاءً بأضواء هادئة وروائح بخور تنبعث منه لتبعث طمأنينة عجيبة وسط كل هذا القلق!.

٢- زواج على نفقة الدولة

للوهلة الأولى لم أتذكره، بل لم يلفت انتباهى بصـــمته ووقاره وتعاريج العمر على وجهه وجبهته، وليتنى لم أتذكره ففى مثل هذه الســـاعة من الصـباح لا أجد أى رغبه لدى فى اسـتحلاب الذكريات المريرة، خاصـة وأن صاحب هذا الوجه من أكثر مصادر هذه الذكريات التى تحولت مع مر السنين إلى ما يشبه النكات المعادة تتخافت قدرتها على الإضحاك ولكنها لم تلغ كل أثر للكراهية.

إنه هو "بعينه وغباوته" الأستاذ "إبراهيم السرجونى" الذى كان منذ أكثر من عشـــر ســـنوات رئيســـى المباشـــر ثم المدير العام؛ وكان فى كلا الوظيفتين؛ أكثر الشخصيات قدره على توليد الكراهية!.

والله لكأنه يستمتع بأن يلعنه الناس فى صدورهم!.

ولم أجده مبتســـماً فى وجهى قط، ولم يكن هذا حاله معى، بل مع الغالبية من الموظفين.

أما القلة التى كان يبتســـم فى وجوههم، فكان يفعل ذلك إمعاناً فى إغاظة الباقين قبل أن يكون بسـبب مراكز آبائهم وأقاربهم الذين أتوا بهم إلى الشركة.

ولكن الشـهادة لله، لم أكن لأسـتطيع النزول من الشـركة فى هذا الوقت للجلوس على المقهى لو كان الأسـتاذ إبراهيم السـرجونى لايزال باقيا فى موقعة.

فقد كان صـارماً للغاية ومواعيد الحضـور والانصـراف لديه؛ كما كان يقول؛ مثل مواعيد غروب وشروق الشمس!.

فماذا لو تأخرت الشمس شروقاً أو غروباً؟!.

إذن لاختل نظام الكون كله.

ولكن يا أسـتاذ إبراهيم، الشـمس تشـرق وتغرب على الجميع ولا تترك أرضـاً وتبقى فى أرض، أما سـيادتك فكنت تشـرق بطلعتك المزعجة، فتحول مكاننا إلى جحيم، بينما تهبط على غيرنا برداً وسلاماً.

الشـمس لا تتعب وتيأس وتتخنق وتركب الأتوبيس ولا تعبر شـارع رمسيس!.

ذكريات أصبحت بعيده ولذلك فهى جميلة على ما كان فيها!.

ولم أقاوم رغبة فى النظر إلى وجه الأستاذ، فقد أشعر بالشماتة فى مثله وكيف انتهى به ظلمه لأن يجلس على المقهى نفسـها التى كان يحذر منها الموظفين.

فيا ترى ما الذى جاء به؟!.

وبعد قليل دخل "تامر البرصـــاوى" زوج ابنته ومدير إدارة الشـــئون التجارية.. ولم أجد مفرا من إعاده الحكاية القديمة فى خيالى، عندما جاء الشاب الصغير "البرصاوى" إلى الشركة ليعين من أول يوم دخل فيه، بينما كان على قائمة الانتظار، العشـــرات من الموظفين بعقود مؤقتة.

وعرفنا أن الذى جاء به هو الأســـتاذ ســـرجونى، فالأســـتاذ تامر قريب المدام ومطلوب عمل على وجه السرعة لأنه خطيب البنت الدلوعة تلك التى كانت تجئ إلى الشـــركة أحياناً وكان منظرها كريهاً، فهى لم ترث بياض البشرة عن أبيها، بل كان لون جلدها محترقاً، لا هو بالأسمر ولا بالأبيض وكان شعرها مجعداً وترسم نفس التكشيرة المكتئبة على وجهها وتتعامل مع الموظفين بصـــلف وتكبر، مع أن والدها المبجل ليس من قيادات الشـــركة ولا حتى من الصـــف الثانى، لكن هذا كان يبدو طبيعة فى شخصيتها وكانت دلوعة ماما وبابا، فهى كما عرفنا الابنة الكبرى.

وعرفت من ثرثرة الموظفات من زميلاتى أن الأميرة جهاد – كما كانوا يســـمونها ســـخرية – هى صـــاحبة الأمر والنهى على البيت وإن هذا الدكتاتور الصغير يتصاغر أمام أوامرها قبل أوامر أمها!.

لكن قصة زواج الأميرة جهاد هى التى كانت أكثر استفزازا أكثر من أى تفاصيل أخرى، إذ قرر السيد سرجونى ألا يكلف نفسه ولا خطيب ابنته أى تكاليف، بل كان الزواج من الألف إلى الياء على حساب الشركة التى هى أحدى شركات الدولة – أيام ما كان هناك دولة – فقد عرفنا أن حفل الخطوبة الذى جرى فى النادى النهرى التابع للشركة، لم يكلف السرجونى مليماً واحداً، لأن هناك أوامر من السيد رئيس مجلس إدارة الشركة بتسديد المصروفات على الطريقة نفسها التى كان يقوم بها السرجونى بتستيف حسابات مصروفات السيد رئيس مجلس الإدارة، وهو الذى كان يتحدث السرجونى باسمه وكأنه الوكيل التابع له ويوحى دائماً – وقد يكون ذلك خطأً – أن الرئيس المفدى لا يفعل صغيرة ولا كبيرة إلا بمشورة الأستاذ السرجونى الذى فتح أمام الشركة مجالات واسعة زادت من نشاطها وعرفنا أن المزرعة الكبرى على طريق الإسكندرية الصحراوى المملوكة للسيد رئيس مجلس الإدارة، قد قام بتخليص أوراقها السرجونى صاحب الطرق السحرية في التعامل مع الموظفين، كما أنه هو الذى عقد صفقات التخليص مع المتصارعين حول المزرعة من بلطجية الأراضى والمتربحين من الصراع على حيازة الأراضى.

ولم يكن حفل الخطوبة وحده هو الهدية المقدمة من الشركة، بل كان من نصيب الأستاذ تامر والأميرة جهاد، شقة من شقق الأوقاف التى

تأخذ الشـركة عدداً منها لتوزيعها على الموظفين بالقرعة العلنية التى لا يحضرها أى موظفين سوى من يفوزون بالشقق!.

والعجيب أن أى من الموظفين لم يفعل شيئاً سوى تبادل الحسرات على المقهى، لكن كلهم وبلا اسـتثناء يتمنون أن يكونوا من بين الحاضـرين والفائزين بالكوسة نفسها التى ينقمون منها!.

ولكن كيف ستكفى الكوسة كل هؤلاء؟!.

فالثورة لا تحدث أبدا إذا ما شبع الكل من الكوسة.

ولكن هيهات هيهات، فالغضب الغضب.. إذا لم يوف الجميع نصيبهم من الكوسة!.

بصراحة لم أجد فى نفسى رغبة فى الثورة على مثل هذه الأشكال من المحسوبية والفساد وغيرها لأن كل الذين أعرفهم لا يجيدون سوى الكلام الحانق على المقهى الذى كان هو المتنفس الوحيد، أما إذا أتيحت فرصة لأحد منهم أن يقترب من شلة الرئيس أو السرجونى، فإنه يتحول من ثائر إلى بوق دعاية فى أقل من ٢٤ ساعة وتختفى علامات وكلمات الحنق وتخبو الثورة إلى حين وربما إلى الأبد!.

وفى تشطيبات الشقة، كل شيء جاء من المخازن حتى السيراميك والبانيو وقاعدة التواليت والشطافة، فسوف يغسل البرصاوي مؤخرته

على حساب الحكومة، أما عن أثاث الشقة، فقد استطاع الأستاذ إبراهيم السرجونى فى تدبير الأثاث من الملعقة إلى دولاب غرفة النوم البلاكار، عندما ترأس لجنة تحديث أثاث مكتب رئيس مجلس الإدارة واستراحاته فى القاهرة والإسكندرية والإسماعيلية وأسوان وكذلك عدد من الشقق والشاليهات التى يصيف بها العاملون بالشركة جميعها مملوكة لشركتهم.

وكان أثاث شقة الزوجية مكافأة سرية جمعها السرجونى على دفعات من الشركات التى اشترى منها كل ما سبق.. وحتى عملية نقل الأثاث والأجهزة الكهربائية، كانت بسيارات نقل المحلات مجانا مجاملة للسرجوني بك.

وكل ذلك وتامر بك لا يهتم بشيء ولا يتحمل أى مسؤلية والأميرة جهاد تتابع مع والدها كل خطوة لتأثيث بيت الزوجية.

وكانت جهاد فتاه عادية تحمل ملامح بنت مصرية وإن كانت نحيفة إلى درجة يمكن أن نحسب بلمسات خفيفة عدد عظام جسمها وعلى حد تعبير "فتحى القرينى" زميلى فى المكتب

: هذه البنت كرباج سرير.. أسألنى أنا عن هذا النوع الناشف من البنات.. ويا بخت من ينام مع واحدة مثل جهاد، فعلى ما يبدو من قنعرتها، إلا أنها خدامة سرير درجة أولى وما تجده من نقص فى

أنوثتها، فإن تعويضــه لا يظهر إلا عندما تلمس ما بين ســاقيها وحينئذ سوف ترى!.

كان هذا الكلام مجرد استنتاجات فائرة من صديقى وزميلى الثرثار الذى هو أحد المقربين من الســرجونى نفســه وبصــراحة هو مصــدر كل المعلومات فى هذه القصــة، قصــة الزواج الذى تم على نفقة الدولة، وكان اقتراب القرينى من الســرجونى بهدف واحد، فقد كان تقربه فى البداية اتقاءً لشــره، لأن القرينى لم يكن قادراً على اللحاق بمواعيد الحضور بسبب طول المسافة بين مسكنه وبين مقر الشركة، فوجد فى دور التابع المخلص للسرجونى وسيلة للتغاضى عن هذا التأخير واكتفى الســرجونى بالتجاهل وكان فى مقابل ذلك يكلف القرينى بأعمال زائدة فيما بعد الوقت، بالإضافة إلى أعماله الشخصية، وغالبا ما كان يكلفه بمهمات خارج نطاق العمل.

والعجيب أن القرينى كان مثلنا لا يحصــل على أى امتيازات، فلا مكافآت ولا بدلات ولا أى شيء ووجد فى إفشاء أسرار السرجونى أفضل وسيلة للانتقام منه!.

: تصــور.. أن هذا الحمار الأكبر، لا يعطى لي أى مقابل للمشــاوير التى أقضيها كلها على حسابى.. ولا حتى المواصلات!.

والقرينى يأمل فى أن يزج السرجونى باسمه فى كشف التعيينات القادمة، فهو قد أمضى سنوات طويلة تعب فى إحصائها، موظفاً بعقد مؤقت يتم تجديده كل ثلاثة شـــهور وتوافد عليه العشـــرات فمن تأخر منهم، ترك الشركة إلى عمل آخر ومن يسعفه الحظ، يقوم السرجونى بتزكيته للتعين بشـــكل دائم وهى الغاية الكبرى التى لم يلحق بها القرينى رغم كل الخدمات التى يؤديها له وكان ينفجر غضـــباً وهو يقول لي: "أنا أعرف السر فى أنه لا يريد تعيينى.. لأنه يخشى أن يفقد الخادم المخلص ولو تم تعيينى لربما فقدنى كخادم، مع أننى ســـأظل تحت ســـلطانه، أم أن هذه النوعية لا تقدم الخير إلا تحت ضـــغوط بعينها؟، حتى ابنته عندما حادثته بشأن تعيينى وعدها بأنه سوف يفعل بعد إتمام زواجها".

وربما كانت هذه هى أهم الأســباب التى جعلت القرينى ينحت الصــخر من أجل إتمام هذا الزواج، أما وقد انتهيا من الشـقة وتجهيزها، فلم يتبق إلا أن يقوم السيد سرجونى بتأمين مستقبل زوج ابنته، فسعى حتى نقله إلى إدارة الشئون التجارية قسم المشتروات وهذا ما يسمونه فى الشركة "قسم الكويت" فقد كانت بدلات وعمولات هذا القسم تشعر من يعمل به وكأنه فى إعارة إلى الكويت وليس هذا فقط، بل كلما حصـــل تامر البرصـــاوى على قطعة أرض على طريق الإســماعيلية مســاحتها ١٠ أفدنة مستصلحة وقبل حتى أن يراها، باعها بموجب إيصال سداد دفعة الحجز وبالطريقة نفسـها باع شـقة فى عمارات حصـلت عليها الشـركة بالإســكندرية من الأوقاف وهذا ما أطلع عليه القرينى وما خفى كان

أعظم، فمظاهر الثراء قد لاحت على تامر واستطاع أن يحجز سيارة فارهة بالتقسيط على مرتبه من الشركة وعندما استلمها حضر بها إلى الشركة ليعلق القرينى وهو يعض أنامله قائلاً: وماله يا عم.. فالباشا العريس لا يذهب إلى الخزينة لقبض مرتبه مكتفياً بما يجنيه من البدلات والعمولات.. وربما لا يدرى كم يكون مربوط مرتبه.

وفى القاعة الكبرى أقيم حفل الزفاف فى نادى الشركة وكان كل العاملين فى خدمة التجهيز للحفل وتزيين الممرات، وكان الجميع يتسابقون على تقديم أى خدمة يطلبها العريس ووالد العريس وحضر السيد رئيس مجلس الإدارة بنفسه حفل الزفاف ومعه لفيف من قيادات الشركة والنقابة وصندوق العاملين.

وكان السرجونى يقف فى استقبال المهنئين ضاحكاً طبعا على غير عادته وربما كانت هذه المرة الأولى التى أرى فيها الرجل يضحك.

وعندما جلسنا على إحدى الموائد البعيدة، مر علينا وأوصى العاملين بالاهتمام بالمائدة وحين حضر الطعام أوصانى صديقى فتحى القرينى أن أفعل مثله وآكل كل ما أستطيع من طعام وحلوى وفاكهه وأشرب فوق طاقتى من المشروبات الباردة والساخنة ولو اضطررت للذهاب للحمام للتقيؤ عدة مرات، فهذه الفرصة لن تتكرر قبل أن تبلغ ابنه السرجونى القادمة سن الزواج وهمس القرينى وهو يضحك لكل من حوله على المائدة: "اغتنموا الفرصة، فهذا هو نصيبكم من الشركة

واعتبروه عشـــاء على نفقة الدولة كما كان الزواج أيضـــاً على نفقة الدولة"!.

٣- أنت تريد أن تسمع وأنا أريد أن أتكلم

اسـمه مهاب وهو بالفعل، مهيب فى طلعته وأناقته وهو قاض بن قاض بن قاض، فقد توارث أسـرته القضـاء على مر العصـور، ربما منذ عهد أوزوريس قاضى قضاة الأساطير المصرية!.

ولكنه فجأة ترك القضـاء وعمل محاميًا، فقالوا عنه إنه تشـاجر مع أحد قياداته لأنه شـعر باضـطهاد بسـبب أنه يبدو عليه الوجاهة الزائدة عن اللزوم.

وليس هذا فى ملابســة الفاخرة التى يغدو ويروح بها فقط، فحتى فى الملابس البسيطة، يبدو مهاب كأحد نجوم السينما!.

كما قالوا إن علاقاته النســائية وراء خروجه من القضــاء، أما بعض الحاقدين، فيقولون إنه أجبر على اســتقالته لتورطه فى قضــية رشــوة ورؤساؤه اكتفوا بأن يقدم استقالة بعد إحباط العملية قبل إتمامها.

ولكن وجه مهاب لم يتغير ولا تغيرت عاداته!.

وبعد قليل ضــاق بالمحاماة وأغلق مكتبه ثم أجره لإحدى شــركات الســمســرة فى وســط البلد وقد ظل مهاب لغز الكثيرين حوله ولكنهم

اعتادوا هذه اللغزية منه ومن أســـرته، فهم يبدون محترمين ومؤدبين عاليهم هيبة ظاهرة، تقابلها غيرة باطنة من غيرهم!.

ولم أتجرأ على الحديث معه، بل ربما كنت أكره ثقته الزائدة التى كنت أظنها تعالياً، غير أنه ذات مرة فى الأسانسير، بادرنى بتحية الصباح وهو يبتسم ابتسامه كأنها جزء غريب التصق فجأة بملامحه، ثم عاد الوجه سيرته الأولى وكأن الملامح الباسمة قد أفلتت منه على غير قصد.

وبعد فجر أحد الأيام الشتوية كنت ساهراً فى إحدى مقاهي وسط البلد، فلمحت مهاب وهو يدخل وكأنه يتسلل، إلى زاوية صغيرة بعد انقضاء صلاة الصبح وخروج كل المصليين تقريباً.. وكانت المفاجأة كافية لأن تدفعنى لأن أترك المقهى وأسير نحو باب الزاوية وأتأكد من أنه هو نفسه مهاب السعيد.

فخلعت حذائي وأنا أخطو بحذر داخل الزاوية، فسمعته وهو يتمتم بالقراءة ثم يركع ويسجد.

ولم أهتم من قبل بأن كان مهاب يصلى أم لا.. ولكنى لم أذكر أنى رأيته يدخل المسجد القريب من مسكنه الذى يواجه مكتبه ولكنى الآن اهتممت ومع أنى لا أعرفه جيدا، فقد شعرت بارتياح عميق لأنى وجدته يصلى، مع أننى أنا شخصياً لم أكن مواظباً على الصلاة في غير يوم

الجمعة كتقليد أسبوعي اعتاد الناس عليه ولو كان من غير المصليين أمثالى!.

ورحت أتأمله فى سجوده – وكان بمفرده – بينما كان خادم الزاوية يجلس منتظراً يقاوم التبرم، لأنه يريد إغلاق الباب تنفيذاً للتعليمات بعد كل صلاة، فعمدت إليه فبادرنى قائلاً في خضوع: الباشا يأتى كل يوم بعد صلاة الفجر ويظل يصلى وأنا لا ستطيع أن أفعل شيئاً ولكنى أريد أن أنام ولا أطمئن لأن اترك الباب مفتوحاً.

إذن فهيبة مهاب منعت الخادم ذى الوجه الحاد والملامح أن يعترض على ما يفعله وعرفت من الخادم أن هذا هو دأب مهاب، فهو يومياً يأتى بعد خروج آخر المصلين للفجر ثم يدخل الزاوية ويصلى حتى تطلع الشمس ويظل معظم وقت صلاته ساجداً وربما يغلق الخادم الباب وينام فى الزاوية حتى يوقظه مهاب ليفتح الباب ولا يلفظ بكلمة.

آه.. هناك شيء آخر غير هيبته، إنه بين الحين والآخر يضع فى يد الخادم مبلغاً من المال وعيناه تذرفان.

وعدت إلى بيتى حائراً ساخراً من مهاب فى أول الأمر: ترى ما الذى يجعل مهاب هكذا؟!.

وبصراحة لم أجد لدى الشجاعة لأن أحادثه ولكنى ترصدت له، فأنا أراه كل ليلة يخرج بعد منتصف الليل لا يخطئ موعده ويذوب من أمام عينى واهتمامى فى زحمة وسط البلد!.

ولكنى فى هذه المرة لن أدعه يفلت منى، فسرت خلفه وهو يسرع الخطى فى شوارع وتقاطاعات وسط البلد، ثم أفضى إلى شارع جانبى صغير يشبه الحارة وولج إلى مدخل عمارة قديمة ولكنه لم يدخلها، بل هبط عده درجات من سلم ملاصق للمدخل، فإذا به محل حقير ذى باب بإطار خشبى ومن الزجاج العاكس وعليه ملصقات صغيرة مثل تلك التى توضع على زجاجات الخمور والبيرة ومعذرة فقد أحدثت من حلقى وأنفى لفظاً حقيرا كنت قد قررت ألا أنطق به ولكنى لم أستطع المقاومة وما لبثت أن توالت في سرى كل ألفاظ الاعتراض البذيئة عندما عرفت أن المكان الذي هبط إليه "بار".

. بار؟!.

. آه.. هو بار!.

. والسجود؟!.. والصلاة..؟! والهيبة..؟! والأبهة؟!.

بدا الأمر فوق طاقة استيعابى، فرحت لبرهة ألتقط أنفاسى ولا أجد أى داع للإجابة على سؤال عبيط.

ماذا يفعل مهاب باشا داخل البار الحقير؟!.

فقررت دخول البار الذى لم يلفت انتباهى من فرط ما هو صغير وحقير، مع أننى أعرف هذا الشارع وأعرف كل البارات الحقيرة المندسة فى ثنايا وسط القاهرة.

حقاً كل بارات وسط البلد أصبحت حقيرة فى كل شيء!.

شباب صعايدة وتجار فاكهة وخضار وسباكين ونجارين وفواعلية وشعراء يدعون الجنون ومثقفون يساريون وأشخاص على وشك الجنون الحقيقي وآخرون شبه بلهاء، كل هؤلاء هم رواد مثل هذا البار، فكيف يكون مهاب واحدا منهم؟!.

أنا نفسى الذى أظن أننى متصعلك محترف، أتردد فى دخول مثل هذا البار بالذات.

ولكنى دخلت فرأيت كل ما توقعته.. لكن مهاب باشا جلس فى أقصى ركن على ترابيزة صغيرة فى زاوية بين عمودين بارزين بينها مسافة لا تكفى سوى لترابيزة صغيرة ومقعد واحد بين العمودين والجدار وأمامه زجاجة بيرة وبدون كوب، فهو يشرب من فم الزجاجة مباشرة مثل كثيرين ممن لا يثقون بنظافة العاملين فى البار.

زجاجة.. اثنتان.. ثلاث زجاجات.. ثم قام مهاب وغادر البار دون أن يدفع الحساب تلاحقه نظرات الجرسون الذى حياه بحبور حقيقى.

: مع السلامة يا باشا.

وكانت الابتسامة الساخرة على شفتى الجرسون مدخلى للحوار معه لمعرفة سر مهاب السعيد

: هو باشا كبير.. تصدق؟!.. أنا لا أعرف اسمه لكنه يحاسبنا كل أسبوع على ثلاث زجاجات بيرة يومياً زائد البقشيش وكثيرا ما يدفع حساب الأسبوع التالى.. وكما ترى.. فهو رجل نظيف يقرف من أكوابنا ورفض حتى أن يخصص له كوب مميز، لأنه لا يثق فى غسيلة وبالطبع هو لم يصرح بذلك ولكنه يبدو عليه أنه ابن ناس كبار وكثيرون من رواد البار يقولون إنه مستشار كبير وبعضهم يقول إنه رئيس نيابة وأحد الصيع رأه مرة ففزع وهرب من البار، وعندما عاد بعد فترة طويلة، أكد لي أن هو نفسه وكيل النيابة الذى حبسه فى قضية سرقة منذ خمس أو ست سنوات.

وعرفت من الجرسون أنه تحت أى ظرف، لا يجرؤ أحد على سؤاله عن اسمه ويبدو أن صاحب البار الوحيد الذى يعرفه ولكنه يتظاهر بعكس ذلك، فهو يكاد ينحنى له عند حضوره ويوصينا بأن نظل رهن أشارة الباشا ولن يغفر أى خطأ مهما كان صغيراً والعقاب الأكيد هو الطرد

ولكنه لم يطرد أحدًا، لأن أحدًا لم يجرؤ على الاقتراب منه.. حتى أولئك الذين ينتمون إلى الفئات الحقيرة، عندما تلعب برؤوسهم الخمر لا يجرؤون على مجرد السخرية المعتادة من المخمورين، مع أن الخمر تعطى شاربها قلباً قوياً وجرأه تصل إلى حد الإجرام.. ولكن السكارى وأن كانوا لا يهتمون بالألغاز، فإنهم جبناء أمام الهيبة.

وعندما خرج لم يتبق سواى من الذين يثيرهم الاهتمام به.. وصممت أن أتبعه وأخترق زحام الشوارع وراءه حتى انتهى إلى شارع قصر النيل، فقلت إنه سيعود، لكنه قصد ميدان التحرير ثم إلى الكورنيش وكان أحياناً يمشى ببطء وأحياناً ينشط وعبر الكورنيش فى خطوات واثقة ومتئده.

ما هذا؟!.. حتى قادة السيارات المسرعة يتوقفون إجلالاً له دون أن يعرفوه؟!.

وكادت سيارة تطيح بى قبل أن أضع قدمى على حافة الرصيف وكدت أسقط، لولا أن يدا امتدت إلى لتمنعنى من السقوط.. إنها يده هو.. مهاب السعيد شخصيا!.

. أى سر فيك يا رجل؟!.

اتجهت لاهثا إلى ســـور الكورنيش وكان هو لايزال ممســـكاً بذراعى، فنظر إلى باسماً وهو يتساءل فى شبه سخرية لماذا كل هذا التسرع، فقد كدت تفقد حياتك بسببى؟!.

. بسببك؟!.

آه.. لقد كان يعرف أننى اتبعه!.

وتوقعت أن يتركنى ويرحل، فإذا بشــفتيه تنفرجان عن ابتســامه ترحيب وســرنا بعدها متجاورين صــامتين، بينما خفت ابتســامته قليلاً، فتملكنى شــعور عميق بالخجل وبأننى فى وضــع لا مبرر له.. فهل ســوف يفهم ما دفعنى للسير وراءه؟!.. وهل كنت غبياً إلى هذا الحد؟!.

ولكنه قطع ســيل الحيرة عندما أمســك بإصــبعية كوع ذراعى اليســرى ودفعنى بلطف تجاه ســـور الكورنيش وجلســـنا على الكنبة الرخام وكان الضوء القادم من مصابيح الإنارة كافياً لأن ألحظ على وجهه رغبة قوية في أن يتكلم، إذ بدت صـــفحة وجهه تميل إلى الحزن وحدث ما جعلنى أشك فى غبائى، إذ قال مهاب فى نبره كأنه يعرفنى منذ فترة طويلة

: أنت تريد أن تسمع وأنا أريد أن أتكلم!.

وبهذه العبارة بدأ مهاب السعيد يقص على مسامعى أحداث قصة كانت كافية أن تعكس كل تيارات حياتى.

: اسمع يا سيدى أظن أنك تعرف جيداً من أكون وأين أسكن وما هى أحوالى.. اسمع جيداً أنا سأفتح أمامك مغاليق صدر لم تخرج منه كلمات إلى اللسان.. فأنا المستشار مهاب السعيد كما تعرف ولكن فى الحقيقة لم أعد من رجال القضاء منذ وقت طويل، بل أن سنوات خدمتي لم تصل بى إلى درجة المستشار ولكن على أى حال فإننا ننادى وكيل النيابة بلقب مستشار فور تولية القضاء، فيتردد على المحكمة ويحكم فى القضايا ويرتقى أعناق البشر.. ولكننى لم أكن راضياً عن عملى كقاض مع أننى كنت متفوقاً وتركت سلك الدراسة الجامعية والتحقت بالنيابة وكنت أحب عملى جداً.. فعشق القانون راسخ فى عروقى.. فأنا لا أستطيع أن أبين لك كم تقلبت فى ظهور القضاة أباً عن جد عن جد الجد.. ولكن الذى لم يجعلنى مهتماً بعملى كقاض، هو أننى لن أكون عادلاً طبقاً لضميرى أو حتى بالقانون نفسه.. يا أخى يبدو أنهم وضعوا هذه القوانين حتى يحطموها، فلا شيء يجرى وفق نص القانون.. ذلك أن النص لا يلبث أن يضيق بكل شيء ويضيق به كل شيء.. أما إذا جئنا للتطبيق، فكيف لى أن أفصل فى ٣٠٠ قضية على الأقل في كل جلسة وغالبا كل أطرافها على استعداد للكذب، بل الكذب هو الأصل والصدق يبدو كلمة غبية عندما تذكر أو حتى عند الإشارة إليها، فالخصم الغبي أو الأبله في المحكمة هو الخصم الذي يصر على أن يكون الطرف الصادق دائما!.

ومن بين هذه القضـايا جاءتني القضـية التى قلبت كيانى وغيرت مجرى حياتى كلها، فقلبها كنت كائنًا نافعًا لكنه يتعاظم فى نفســه وأمام الناس ولا أدرك شـيئًا من هذا وفخور جداً بأننى قاض بن قاض بن قاض وبك وباشـا وبن الأصـول وكنت يوميًا أحد النظرات أمام المرآة وأظل فى هذا الاسـتنفار فى كل مكان، بسـطة السـلم والأسـانسـير والسـيارة والشـارع.. صــدقنى لم يكن صــوتى ينتمي لى ولم أشــعر أننى تافه، إلا بعد هذه القضية، فالتفاهة نعمة كبرى، بشرط ألا تشعر بها!.

المهم أنه عندما لخص لى سـكرتير الجلسـة ما فى أوراق القضـية التى حضر كل أطرافها، وجدت المجنى عليه رجلًا ضعيفاً فى العقد السادس من عمره، لكن عينيه تشــعان بالخبث وإن أتقن المســكنة.. أما الجانى فكان امرأه فى غاية الجمال!.

آه.. إنه الجمال.. ذلك الذى لم أشــعر به قبل رؤيتها.. وكانت عيناها مغروقتين بالدموع ولكن هذه مشـاهد وطنت نفســى على ألا ألتفت إليها ولا يهمنى كقاض أن تكون صــادقة أو كاذبة، فأنا أحكم فقط بما فى الأوراق، فما جاء في الأوراق هو الحقيقة المؤكدة، أما إذا لم يتفق الواقع مع الأوراق، فهو تزوير واضح كما هو معروف عقلاً وقانوناً وواقعاً.

والمقرر لما يجرى فى ردهات المحاكم، هو أنه إذ لم يطابق الواقع لما يأتى فى الأوراق فعلى الواقع أن يراجع نفســه، فكل شــيء هنا يحكمه الورق والأختام وهذه هي بحور الظلمات التي لن أسـتطيع أن ألخصـها

لك ولكنها أمور نستشعرها فقط ولا نحكم بها، تماماً كما استشعرت براءة المتهمة الجميلة ولكن على أى حال تجاهلت هذا الاستشعار وألقيته جانبًا، فهناك تقرير طبى بإصابة الرجل الضعيف الذى يعمل حارساً للعمارة التى تسكن فيها الجميلة وهو تقرير صادر من مستشفى عام ولم تطعن فيه المتهمة الحسناء، لأن محاميها حضر وطلب الصلح الذى فيما يبدو أنه اتفق مع المجنى عليه بشأنه.

ولكن البواب الخبيث تراجع أمام المحكمة التى هى أنا، واعتبرت المحكمة عرض الصلح هو إقرار بارتكاب الواقعة، إذ لم يتحدث المحامى الغبى فى الموضوع وكان كالعادة متعجلاً جداً ولو تم الصلح لكان يمكن أن ينقذها من الحبس شهرا وكفالة مائه جنيه وأصدرت الحكم، وكانت تبدو الحيرة على قسمات الوجه الجميل وأنت لا تعرف كيف يكون الجمال والحيرة عندما يجتمعان!.

وكانت هذه المرة الأولى فى حياتى التى أشعر بها بالجمال كمعنى مفارق للجميل، بالطبع هذا كلام غامض ولكن الشوق الذى استشعرته فى صدرى وصورة الحسناء لم يتركا صدرى كما كان!.

يا أخى كل منه له ميلاد واحد ولكن المحظوظ من البشر من يكون له ميلادان بدلا من الميلاد الواحد!.

آه من أولئك الذين يولدون مرة واحدة ولا يشعرون بفرصة المولد الثانى فى حياتهم.. فلا يكون لهم إلا الخسران المبين.. وكان ممكن أن أعيش حياتى كالأنعام آكل وأشرب وألبس وأسكن وأتزوج وأنجب دون أن أشعر بالمولد الثانى وقد كانت لى من قبل تجارب عاطفية فى الجامعة ولكن كنت محترماً أكثر من اللازم، لأن تربيتى الصارمة والتى كنت أحبها، كانت تمنع أن آتى بأفعال مازلت أراها سخيفة وطفولية ولكنى أمام تلك المتهمة الحسناء، شعرت بمشاعر أخرى كانت من جراء ميلادى الجديد الذى وجدت نفسي به، ولا يهم بعد ذلك، فكل الأشياء تتبدل فلا ألم فى معنى الألم ولا لذة فى طعم اللذة!.

ووجدتنى مدفوعاً للبحث عنها حتى وجدتها أمام القاعة مع الحارس فى طريقها لانتظار إنهاء الإجراءات.. وكان من اليسير أن أقنعها بأن الحكم لا يعتبر نقطة سوداء فى حياتها فهذه إجراءات سخيفة سوف يتم تعديلها حتماً ولابد من ضحايا لمثل هذا السخف.

ولأول مرة أتخلى عن وقارى القضائى وأطلب مباشرة من الموظفين تسهيل إجراءات الإفراج عنها وشعرت بدبيب لم أقاومه وكنت على استعداد أن أضع حياتى مقابلاً لركوبها السيارة معى وسط زحام المتدافعين وكان الثمن نظرات متسائلة من حرس المحكمة حول هذه الحسناء التى تركب معى، لكنها نظرات سوف تذوب فى الزحام والصخب اليومى، فكان جمالها وجاذبيتها وقوداً لدبيب رغبة فى

أوصـــالى لم أهتم بترجمته، حب؟.. شـــهوة؟.. مغامرة؟.. حماقة؟.. أى شيء لا يهم.. المهم أنها استوت ما بين ذراعى!.

وكان يبدو أنها كانت هى الأخرى مشـــدودة مثلى إلى رغبة مجهولة وكانت حبيبتى الجميلة عذراء فقدت عذريتها على فراشـــى مع أنها تبدو كامرأه ناضـــجة، إلا أن رحيقها كان بكراً مثلها وكأنها خارجة للتو من سن الطفولة التى انتهكتها بنفسي ولنفسي.

آه.. إنه شعور الخطيئة!.

أين ضميرى القضائى؟.. بل أين ضميرى الإنسانى؟.

ولكن ليس أجمل من الالتفاف حول الخطايا وكان طريقي للتغلب على الضـمير الأول، سـطور سـريعة فى خطاب اسـتقالة ولا يهم ما يحدث من دوى، فكل ما سـوف أجنيه لا يسـاوى شـيئا أمام سـعادتى بالخطيئة معها.

لكن مازال هناك الضـمير الإنسـانى.. وهذا أيضـاً ليس بالمعضـلة!.. والحل فى سطور أخرى فى وثيقة زواج!.

ولم أهتم بـإعلان عـائلتى جنوني، فلم يكن من دواعى الحيـاة أن تكون لك عائلة أو حتى تكون عاقلا من الأصل!.

وكانت جميلتى امرأه من تلك النوعية من النساء التى لا نجد لها وظيفة فى الحياة سوى أنها جميلة.. فقط جميلة.. ولم أشغل نفسى بشيء، فقد كنت أمارس حياتى معها كزوج محترم لزوجة محترمة، إلا فى الفراش!.

فأروع شيء فى الحياة، أن تمارس الجنس مع امرأة محترمة بمشاعر الخاطئة.. ومن يومها ذقت طعما آخر للخطيئة أجده على فراش الزوجية ولا يهمنى كيف تسير حياتي، فقد صححت الوضع بأننى اشتغلت بالمحاماة، فقط للطعن بالاستئناف والحصول على حكم ببراءة زوجتى من القضية التى سبق وأن حكمت فيها أنا نفسي بحبسها!.

ولكن قبل أن يوضع خاتم المحكمة على ورقة الحكم، كان المأذون وضع خاتما آخر على ورقة الطلاق!.

وكانت هى أولى ضحاياي التى أنزلتها بالخطيئة من فوق عرش الجمال.. فالجمال تذوب ملامحه بالخطايا وهي كانت تريد أن تكون زوجة وأما ولتفخر بى قاضيًا أو محاميًا أو أى شيء، لكنى لست بهذا الرجل، فقد ذقت طعم الحياة ولو لمرة ولم أذق طعماً آخر على شفتي أى امرأة.. فمازال طعم الخطيئة الأولى هو الذى أرتجيه ولكن لم يعد كما كان!.

واكتفيت بالاستغفار بعد رحلة مجون طويلة، عرفت فيها أن الخطيئة لا تعني بالضرورة أن تبتعد عن الله!.

كيف؟!.

هذا ما كنت أشــعر به ومازالت أشــعر به ودعائى لله لا يفارقنى.. وهو شعور الصعود بعد النزول والعلو بعد الهبوط، فلا طعم للاستغفار بدون ذنب ولا جدوى من التوبة بدون الخطيئة، بل ربما كانت الحلاوة التى ارتجيتها فى الخطيئة.. هو أننى فى قاعها أناجى الله وأتوب إليه.. صــدقنى لا أحصـــى عدد المرات التى كنت أســمو فيها باســتغفارى ودعائى، بينما تتمدد بجوارى شريكتى فى خطيئتي.

وكنت كلما أخطأت مع امرأة تزوجتها، إذا ســمحت ظروفها بذلك ولكن لم أتحمل أن تكون شـــريكتى مجرد خاطئة، بل وجدتهن لا يعبئن بمثل هذه المشــاعر وكثيرات وجدتهن فى الفراش بالمشــاعر نفســها قبل وبعد الخطيئة، بل بعد الزواج يصرن بلا قلوب ولا طعم، مما يجعلهن يختفين من حياتى إلى الأبد!.

وكانت هيبتى الكاذبة واســم عائلتى ووضـــعها، يجعلهن يتراجعن عن إحداث أية مشاكل معى.

واستبدلت بصدور النساء وشفاههن، فوهات وأعناق زجاجات الخمر!.

ولكن للأسف فى مصر لا توجد أى خمور من النوع الجيد سوى أنواع قليلة من النبيذ والبيرة، فالغريب يا أخى أننا فى هذا البلد نفســد طعم أى

شـــيء حتى لو كان حرامًا، تمامًا كما أفســـدنا الحشـــيش، ذلك الذى جعله متصوفة الشرق القديم طريقهم للاتصال بالوجود الأعلى.

واسـتغرق مهاب باشـا فى الضـحك، حتى وضـع وجهه بين يديه ولكن ضحكة بدا متناقضاً للغاية مع شخصيته.

ولكن هل هذا هو التناقض الوحيد الذى يستحق التوقف؟!.

وكأنه قرأ ما يدور رأســى وأنا أتابعه ما بين الدهشــة والوجوم.. وعادت ملامحه سـيرتها الأولى وهو يقول: سـترانى بالطبع كإنسـان مجنون أو شبه مجنون ولكن فى عملى الجديد لا يروننى كذلك.

. عملك الجديد؟!.

ـــ نعم.. فقد كان من السـهل أن ألتحق بعمل آخر ولكن الحظ كان قد خبأ لى ما يفوق توقعاتى، فإذا بى ألتحق بوظيفة بجهاز خطير، ربما لا تسـمع عنه، ففى هذا البلد تحدث أشـياء كثيرة ليس لها تفسـير إلا فى تلك الأماكن والشخصيات التى لا يعرفها أحد!.

إنهم هناك كأنهم فى مغارة السـحرة يجتمعون وينظمون سـير البلد دون أن يشـعر بهم أحد ومعهم عاد لى لقب المسـتشـار ولكن بغير منصـة القضاء، فأنا أتمتع بمنصب خطير الآن.. والغريب أن تحرياتهم الدقيقة، لم تسـتطع أن تتوصـل إلى البار الحقير ولا زاوية الصـلاة الصـغيرة مع

انتظامى عليهما وربما يعرفون وتتجاوز عقولهم مثل هذه التفاصيل التى تبدو تافهة فى عيون البعض.

وتوقف مهاب عن الكلام وانتفض واقفاً فى حركة مسرحية هازلة وجلس سريعاً وهو يضحك وقال: هكذا يقف الحارس عندما ألوح بجسدى عند مدخل الطرقة المؤدية إلى مكتبى.. وفى هذا المكتب أراجع لساعات تقارير وقضايا وغيرها.. صدقنى كل الرؤوس التى تنحنى لا تعرف سوى هذا الوجه.. وأضحك فى نفسى قبل أن أسخر منهم، فالحمد لله بفضل الميلاد الحقيقى لم أقتنع أبداً أن تكون كل هذه الاحترامات والانحناءات لى أنا.. فهى لن تصل أبداً إلى ذلك الأنا القابع تحت جلدى، فكثيرون يتوهمون أن صورتهم فى عيون الناس هى نفسها صورتهم فى أنفسهم.. أنظر حولك لتعرف كيف أننا جميعا متفقون على أن الحقيقة هى الكذب المتفق عليه!.

وكثيراً ما صدقنا بشخصيات من حولنا يرتقون أعلى المناصب ويشغلون مواقع فى قلوب الناس ولكنهم أقل ما يقال عنهم هو أنهم تافهون تافهون تافهون.. أما اللحظة التى أشعر فيها أننى أسمو عن هذه التفاهة العمدية، هى اللحظة التى أتوب فيها من ذنب ما وتعجب مني كيفما شئت ولكن خذ الأكثر عجباً.. وهو أننى أتوب وأنا فى بؤرة الخطيئة!.

بل أحياناً ونشوة البيرة تدغدغ نفسى.. وأحيانًا أخرى وأنا بين ذراعى أو ساقى امرأة أقذف فيها خلاصة جسدى.. قل عني إنى متناقض وأدع

بما شـــئت حتى الجنون.. ولكن لا تقل أبداً إنى كاذب، فأنا لا أعرف منك ســـوى وجهك حتى اســـمك لا أذكره وأتحدث إليك حديثى الطويل فقط، لأن واحدا من بنى البشر لابد من أن يطلع خلاصة التجربة!.

كنت أحياناً أشـــعر بذلك الارتفاع الروحى وعرقى ممزوج بعرق امرأة لا تريد مني سوى انتفاضة الجسد.. ولا يهمنى ذلك منها.

لكن هل تدرى أن وجه المرأة هو أقبح ما يكون عندما تصل النشوة؟!.

فبينما هى تقنع بهذا الكسب الضئيل حلالا أو حراما، أكون أنا قد فزت بمـا لم يشـــعر بـه أحـد ســـواى وفى داخلى يقين الغفران.. لأنى ضعيف يقف أمام القوى أو حامل للدنس على أعتاب ساحات الطهر!.

هناك عند هذه الحدود تتجلى لي روحي وأحاورها وأحاوره.

وكان ما ينغص على ســـعادتى بما أنا فيه هو ســـؤال عن كيفية أن أحادث إلهي وأنا هكذا وعلى تلك الحال؟!.

لكني تجاوزت ذلك ومع تجاوزى.. جاءنى الســـر الذى يجعل الخطايا هى البـاب الرائع لحديقـة الغفران، فلولا الخطيئـة مـا عرفت لـذة التوبـة والعودة الرحبة!.. ألا ترى أن أفضـل اغتسـال ينعشـك هو بعد أن تشـعر بالأوســاخ على قمة رأســك وأن الارتواء الحقيقي لا يشــعر بلذته ســوى المشرفون على الموت عطشا؟!.

فهكذا كنت أنا أرانى فى الدرك السـفلى من الخطيئة، أناجى ربى فتنفتح على فيوض من النور الطـاهر، فكثيرون يعصـــون الله وهم يعبدونـه وكثيرون يطيعون الله وهم لا يعرفونه أبداً.. ولكنى أصـــارحك أنه حتى هذه اللحظـة لم يصـــل إلى قرار الغفران، فقط أنتظر، ففى انتظاره لذة أخرى فما بالك بالموافقة عليه؟!.

قلت للمستشـار مهاب وكأني أعود من مشوار طويل ومرهق نسيت فيه الراحـة: أراك تريد أن تعود إلى الجنـة بـالخطيئـة التى هبط بهـا آدم من تحت شجرة الخلد!.

ـ لا.. بل أنا منتظر للكلمات التى سوف تطهرنى من أشياء كثيرة، أقلها من تلك الخطايا، فربما كانت كأس من خمر أو لمســـة على جلد امرأة هى أهون خطاياى.. بل ربما كانت خطيئتى الحقيقية، عسـيرة الغفران.. أو تكون شيئا ما يختفي في أعماقي ولم يترجم إلى كلمة أو فعل!.

ـ ألا ترى أنك ترهق نفسك وترهقنى معك وتزين لنفسك كل الخطايا حتى يسهل عليك ارتكابها؟!

ــ لا.. بل إن فى الشعور بالخطأ وليس في الخطأ نفسه، قوة دافعة يمر عليها المخطئون دون أن يدركوها ولو ظلوا عليها ألف سـنة.. ولكنها لا تهـدى إلا إلى القليل والقليل جدًا ومـازلـت متعلقاً بـأن أكون من هـذا

القليل.. فهناك كل شـيء يتصـاغر حتى الخطايا وكل شـيء يهبط إلى أسفل كأنه ينهار أو كأنه يسجد!.

فلا يكون عندئذ، إلا واحد هو الكبير وهو المتعال.

٤ـ وزيرة فى منتصف الليل

"أتحدى من يجد فى جسم ميار غلطة واحدة"!.

هذه هى العبارة الشـهيرة التى يرددها سـعد شـقير مختتماً حديثه المفتون عن فتاه كافتريا ومطعم إيزيس فى وسط القاهرة.

. وهى بالفعل كذلك؟!.

ـــــ أي نعم وأكثر.. لكن سـر جمال ميار، ليس فقط فى صـحة ودقة وصـف عبارة شـقير ولا فقط في وجه صـبوح ولا في عينيها السـوداوين تحت رموش سارحة وسايحة.

نعم كل هذا صحيح فيها بل وأكثر.

وبالمناســـبة فاســـم كافتريا ومطعم لا يعنى أنه مكان لتقديم مأكولات ومشروبات ولكنه أفضل من اسم بار أو كبارية.

فهى كافتريا على مســـاحة كبيرة فى الدور الأول من عمارة عملاقة بمدخل خاص مع مجموعة شركات لا تعمل ليلاً.

المهم.. إن سـر جمال ميار هو شـخصـيتها التى تبدو قوية وحتى في صـــوتها المنطلق بثقة واســـتهزاء وذكاء حاد فى الردود وبذاءة موظفة توظيفاً جيداً حتى تبدو وكأنها واللباقة سواء!.

ثم إن ميار ليس لها مهمة سـوى في داخل الكافتريا، فهى لا تذهب إلى مشـاوير خاصـة أبداً.. فقد نصـحتها مدام "بوسـى" مديرة الكافتريا، بأن سـر سـحرها للألباب سـيذوب لو أباحت جسـدها لزبائن الكافتريا.. مهما كانوا.. وسـتحافظ على قوامها الرشـيق وهيبتها فى العيون، ما لم تمكن أحدا من "كوبشة" الحمالة على صدرها الناهد الناهض!.

"إلا الكوبشـة والأسـتك يا ميار ولا تذوقي أحدًا طعم الروج فى شـفتيك أبداً".

وشئ ما فى حياة ميار جعلها تحتقر الناس بلا سبب وربما كان هذا هو سر احتفاظها بسطوة فى عيون السكارى.

"جسـمك ثروتك الحقيقية ولايزال أمامك الكثير يا ميار حتى تشـتاقى إلى زوج وأولاد".

نصيحة أخرى من مدام بوسى.

ونصيحة ثالثة: "لا تمكنى اليأس من قلوبهم فلو يئسوا فإنهم سيؤذونك حتماً بداية من البلطجى الواقف على باب البار وحتى الباشا الذى يأتى بين الحين والآخر ليسهر فى المكتب بعيدا عن الصالة"!.

وتتوالي نصائح بوسي:

"أوعى الحب يا بت يا ميار، فالعاشق الذي هو على أتم استعداد اليوم للعق تراب حذائك النظيف؛ سوف يضربك غدًا بأقدم وأقذر حذاء عنده، فقلبك طريق اتجاهه واحد إلى ما تعرفينه من جسدك"!.

وميار بالفعل لا تجد فى نفسها أدنى رغبة فى الانزلاق من عالم السكارى إلى عالم الدعارة وليس بنصائح مدام بوسى فقط، بل لأنها بالفعل تعتز بنفسها لأنها خريجة جامعية ومن كلية الآداب قسم الاجتماع!.

وليس هذا فقط..لأنها كانت تنسى كل ما تدرسه مع آخر كلمة فى ورقة الإجابة.. ولكن لأنها ترى أن عملها كفتاة بار فى كافتريا نصف سيئة السمعة فى وسط البلد، مرحلة لن تطول لأن هدفها الحقيقى هو أن تصير شيئا ذا أهمية كبرى فى البلد كله.. وليس فقط فى وسط البلد.

فعسى أن يسوق لها القدر رجلاً ذا سطوة حقيقية وليس من هؤلاء النصابين الكذابين رواد نصف الليل وهم يأتون كثيراً ويتسللون إلى مكتب مدام بوسى ويستسلمون لدبيب البيرة وينفثون دخان الحشيش

وبعضـهم يطلب من يعبث بجسـدها فوق الملابس أو تعبث بجسـده هي بالطريقة نفسها.. وأحيانا تخرج معه إلى السيارة أو الشقة.

لكن ميار لا وألف لا.. لأن رحلة السيارة أو الشقة لن تنتهى إلى تحقيق حلمها بأن تكون شيئا.

وكما قالت لها بوسى:

"لا تواعدى أحداً فالوعد عند هؤلاء الأقذار أكبر من الفعل.. ولكن من طرف عينك أرسـلى نظرة وتراجعى عنها فوراً، سـاعتها سـيبحثون عنك كـالكلاب ولكن ثقي أن كلهم ككلاب الشـــوارع أو كلاب الحـانـات فى شـــارع كلوت بك قديماً.. وهم كما كانت تحكي لي خالتك أم بوســـى.. كلاب"يزومون ولا يتحركون ولا يعضون"!.

يـا ميـار.. مجرد الوعـد لا.. وكونى طـاهرة بـالفعـل فى داخلـك فمـاء الاســـتحمام من فعل الجنس، يمكن أن يزيل إفرازات الرجال من على جسمك، لكنه سينقل القلق من جسمك إلى وجهك".

"ونضـارة العذرية على الخدين ولمعانها فى العينين لا يعوضـها شـيء.. لا بودرة ولا كحل".

"اغضـــبى إذا امتدت يد إليك ولتدمع عيناك وأنت جالســـة على أقرب كرســـي ولو أدى الأمر للنحيب أو نبش أظافرك فى الجلد من أجل الشرف فافعلى"!.

"يكفى يا ميورة أن تشعرى فى داخلك أنك شريفة بالفعل ولا يهم ما يقوله الناس فكثير ممن يتكلمون عن الشـــرف لا يعرفون آبائهم من أزواج أمهاتهم.. فكلهم يا حبيبة قلبي يكرهون الشرف ولكنهم يخافونه أكثر مما يكرهونه"!.

" احذرى البلطجية يا ميار واعرضـــى كل ما معك من فلوس على من يفرض أتاوه عليك.. ساعتها سيأخذ القليل أو الكثير ولكن سيترك لك شيئاً فى المرة الأولى، أما فى المرة الثانية يا ميار، فيمكنك أن تجمعى كل ما فى فمك من ســـوائل وتتفيه فى وجهه.. بل فى عينه.. لأنك كسرتى هيبته بما فعلتيه فى المرة الأولى لأن البلطجى جبان.. والجبان لا يضرب بقوة إلا مرة واحدة وبعدها يصير مثل الكلب الأجرب يخاف من الناس أكثر مما يخيفهم"!.

وكما قالت ماما بوسي:

"البعض من بنات الليل لا يمنحن أجسادهن إلا لباشا كبير أو بلطجى حقير وكثير من الزبائن يحومون كالذباب فقط وحتى لو أتيحت لأحد

هم الفرصـة، فلن يفعل شـيئاً سـوى أن يلوث ملابسـه أو ملابسـك على الأكثر"!.

"وصدقيني لو منحتى جسدك لسايس السيارات فى الشارع، أفضل من هؤلاء، فعلى الأقل، سوف يمتعك ولو قليلًا"!.

وميار صـــارت واحدة من أشـــهر بنات ليل وســـط القاهرة ولكنها مثل التحف النادرة ممنوع الاقتراب أو اللمس.. وذاعت شـهرتها حتى تكالبت عليها الكافتريات والبارات لتعمل لديها ولكنها لن تترك مدام بوســـى أو "ماما بوسى"، كما تحب أن تناديها هي وكل بنات الكافتريا.

عموماً فكل الزبائن يحضـرون لرؤية ميار الرشـيقة وهى تملأ الكاسـات، فمهمتها كانت فى البداية أن تملأ الكاسـات ثم وجدت كل الفتيات يفعلن ذلك.. فالأوامر صـارمة بأن يسـتهلك الزبون أقصـى عدد من زجاجات البيرة أو الخمر والأفضـــل أن يخرج وليس فى جيبـه ســـوى ثمن المواصـــلات إن لم يكن لديه ســـيارة.. ولكن ميار لم تعد تفعل هذا.. فيجب عليها أن تجعل الزبون يحترمها ويحتار معها جداً وليتحدث عن جراءتهـا ولبـاقتهـا وثقتهـا أكثر ممـا يتحـدث عن عينيهـا وصـــدرهـا ومؤخرتها.. فسر من أسرار جمالها هو نظرة الثقة وهذا الطرف الغامض الذى أجادته في إرباك الزبون المهم والمهم فقط.

أما البنات االباقيات فلسـن سـوى قطط زبالة وأكبر ترقية في انتظارهن على الأكثر، تكون إلى رتبه نعاج ليلية!.

وميار ترفع رأســها فى كل مكان ولا تفعل كما تفعل بنات الليل الواحدة منهن إما يا عيني منسكرة أو صفيقة.

ميار لا تبوح بسرها لأحد.. أيا كان.. لأن أغلى نصيحة من ماما بوسى هى ألا تكشف عن سر مهما كان تافها.

قالت لها: "تعلمي من كهن الداعرة المصـــرية القارحة.. لأنها لا تبوح بسرها حتى يعلو بطن ركبتها كتف الزبون"!.

ميار سـتمتضـي فى طريقها لتصـل إلى أن تكون شـيئاً كبيرا وخطيرا.. مديرة.. أو سفيرة.. أو حتى وزيرة!.

. نعم يا عمر؟!.. إيه يا روح ماما؟.

. أيوه ونعم ونعمين وثلاثة.. وزيرة؟!.. ولماذا لا؟!.

"ألم تكن تلك هي الرغبة التى تمناها أبوها الأســطى "فؤاد الســيد محمد جاد الرب"؟!.

فعندما ولدتها أمها وجاءت بها البشــرى إلى الأســطى "فؤاد" وهو خارج لتوه فائزاً بعضــوية اللجنة النقابية لعمال الحدادة في المصــنع.. قرر أن

يسمى ابنته التى استبشر بها "وزيرة" لتصبح: وزيرة فؤاد السيد محمد جاد الرب وهى طول عمرها نوارة الصليبة كلها.. تلك المنطقة الشعبية القديمة فى حي القلعة العتيد.

"وزيرة" اسم كله فخر ورجاء وزهو.. وربما يسخر منه البعض ولكنه اسم أعطاها ثقة بأنها ستكون يوماً وزيرة.

اسم يدعو للسخرية على العكس من المنصب تماماً.. ليكن هذا سرا لا يعرفه في المحل إلا ماما بوسي وتكونى فقط "ميار".

"ميار اسم شيك ويليق بك يا وزيرة وعندما أرى أن الفرصة سانحة لأن تتركى هذا المكان لنرتقى أكثر.. فسوف أساعدك حتى لو نسيتي يا ميار ماما بوسى.. فيكفى أن تخرج من بيننا واحدة ترتقى حتى تكون شيئًا.. فنحن هنا يا ميورتي ننتظر ساعة أن يتحقق حلم.. أي حلم.. ولو كان فى واحدة تبعد عنا ولو لم تعد"!.

"فهذا الحلم هو الذى يأتى بكل فتاة إلى هنا.. فقد تخرج ميار وتصبح وزيرة ولا يسخر من اسمها أحد!".

"اسمعى نصائح ماما بوسى وستكونين المشروع الوحيد الذى حتماً سينجح..لأنك سوف تتبعين ما تقوله لك من حصيلة خبرة ٤٥ سنة فى مؤسسة نصف الليل يا معالى الوزيرة"!.

٥ـ خالو يا خالو

شـــيء مفزع أن تنقلب حياتك كلها رأســا على عقب دون ســابق إنذار.. سامحنى يا شادي لأني سأروي قصتك الصادمة والمخزية معا.. أنا لا أفضحك ولا أدينك.. لأننى عن نفسي أسقطت المسئولية الأخلاقية عن ضميري.. ليس لأن كل شيء أصبح مباحا.. أو أن الانتهازية صارت هي ســـيدة الموقف.. لا هذه ولا تلك.. ولكن لأنك لا تعرفني ولم تكن يوما صديقي وبالطبع لم تأمني على سرك!.

– وما المناسبة؟!

المناســبة دائما حاضــرة للعبرة أو للنميمة.. ولكن بالفعل قصــة شــادي راضــي عبيد الأصــيل، قصــة مفزعة ومخزية.. لا يتمنى أحد أن يضــع نفســه مكانه لأن أحدا لا يريد أن يفترض أن تكون له أم مثل أم شــادي أو أب مثل أبيه.

قلنا إن شـــادي عندما أتم التاســـعة والعشـــرين من العمر وازداد عليها شهورا ثلاثة؛ عرف أن أمه امرأة غير عفيفة!.

كيف عرفّ؟.. وماذا اكتشف.. وأنى له أن يعرف هذا؟!.

– وما التفاصيل؟..هه ..هه .. ما التفاصيل.. قلها.. أنت ممل؟!.

صـــبرك علي فالقصـــة تتجاوز النميمة.. فقد عرف شـــادي أن أونكل "حسـنى الباعث" ليس هو خال ماما، بل ولا تربطها به أي صـلة دم أو حتى نسب ولو من بعيد!.

وأونكل حســـنى طالع نازل وكل الجيران يعرفون أنه باشـــا كبير.. ضـــابط؟!.. قاضـــي؟!.. نائب؟!.. مدير؟!.. وزير؟!.. لا يهم.. فالمهم أنه رجل عظيم النفوذ واسـع السـيطرة.. وكل مصـالح أسـرة راضـي عبيد ومعارفه وأحبابه مقضـــية بإذن واحد أحد.. بكارت أو بمكالمة أو حتى بمجرد ذكر اسمه.

ولا يذكر شـادي متى عرف عمو أو خالو أونكل حسـني الباعث.. فمنذ بدأ وعيه في التفتح وهو يرى حالة الطوارئ تفرض فرضـــا على البيت، عندما يأتي أونكل ووتسـع ابتسـامة الترحيب في وجه بابا راضـي طوال ما بقي أونكل في البيت.

بل ويقدم له القهوة بنفســـه وهو جالس بالتريينج ســـوت في البلكونة في الصباح.. قبل أن يرتدي ملابسـه الشيك ويضـع البيرفيوم الخرافة، لتبقى رائحته في كل الأركان وعلى الســـلم وأمام مدخل البلوك وتطغي على روائح القمامة المبعثرة وأدخنة قدح الزيت الرخيص من مطابخ الشقق.

ويا ســلام عليه، فعلى عظمته.. هو راجل متواضــع.. لا يســتنكف أن يزور بنت أخته في بلوكات المســـاكن الشـــعبية.. ولكن لم يحقق أمل

شـادي في الالتحاق بكلية الشـرطة وآثر عليه شـقيقه آسـر.. ولكن وعده إذا تخرج من كلية الحقوق بتقدير عال، فسوف يعينه في النيابة.

لكن نظام التقدير العام لسـنوات الدراسـة الأربعة وقف حائلا دون تحيق الحلم.

"وماذا يعني يا باشـــا.. أنت تقدر على كل شـــيء يا أونكل.. ثم إنك أدخلت آسر أخي الشرطة بمجموع هزيل وباستثناء شرط عرض الصدر في اختبارات الكلية".

"لكنك تؤثر علي آســر شــقيقي.. هل لأنه يشــبهك كما تقول ماما؟!.. أشـعر يا أونكل أنك تكرهنى وتفضـل آسـر علي مع إنى أشـبهك أكثر منه.. أنا كما تقول ماما ورثت طولك وعرضك وآسر لا يشبهك فيه إلا الوجه.. والتكشيرة!".

"لكن ولا يهمني.. أكيد ســـوف تجد لي عملا يليق بـابن بنـت أخـت الباشاّ".

– بنت أختك؟!.

هذا هو مربط الفرس وسـر كتابة هذه القصـة.. فقد تعرف شـادي على صـــديقه على موقع فيس بوك على شـــبكة الإنترنت اســـمها رنا الباعث..ووووووو.. بنت صاروخ.. وآخر دليكات وراقية جدا.

هو صحيح.. لماذا لم يتحدث أونكل عن أسرته ولم يصحبها لزيارة بيت بنت أخته.. طول عمرك يا شادي لا تعرف أولاده إلا من بعيد وتسمع عنهم وفي النادي أشاروا لك من بعيد على بن الباشا الثاني وتمنيت ساعتها أن تصير صديقه.. أنا قريبك يا بك.. ألا ترى الشبه؟!.

بصراحة يا شادي.. يشبهك.. لكن ماذا ستفعل في فرق النظافة؟!.

اعذرني يا شادي أنت ولد شيك ونظيف بجد ولكن على مستوى البولكات السكنية.. وهناك فرق بين العضوية العاملة والدخول لأجل خاطر اسمه قريب الباشا.

وجمال بن الباشا يكتفي بالابتسام من بعيد لقريبه شادي ولكن جمال لم يزرهم مرة ولا كلمهم.. حتى يعيد عليهم في العيد.. أبوه فقط هو الذي يأتى في أي وقت ليشيع البهجة في البيت.. وعبوس الأب راضي عبيد الأصيل ففقط في وجوه الأولاد لو صدر عنهم ما يمكن أن يقلق الباشا

تفضلوا محبوسين في غرفتكم أو بره.

آسر علق النجمة الثانية بعد سنة من التخرج وأنت النجمة الثالثة وأنت محلك سر يا شادي.. سوء الحظ واقف لك بالمرصاد.. حتى السفر لا فرصة ولا تكاليف ولا خبرة.

وماذا يفعل الباشا إذن؟!.

– أنت منحوس ووشك فقري.

قالت له أمه وهي تعد وراء المكوجي ملابس الباشـا التى يحتفظ بها في دولابه الخاص بغرفة النوم الكبيرة.

قالت أيضـا: احمد ربنا نحن أحسـن من غيرنا وكفاية إنه أدخل آسـر كلية الشـرطة.. كما أنه وعدنا بأرض في القاهرة الجديدة.. بكرة نترك البلوكات ل"الفلل" ياوش النحس.

آه الفلل.. بالتأكيد السـكن في فيلا أفضـل بكثير.. وسـتفتح الأبواب المغلقة فمحامي الفيلا.. غير محامي البلوك!.

وساعتها سأليق بالارتباط بمثل رنا التى كانت سعيدة جدا عندما أخبرتها يا شادي أنك قريبها.. لكنها لم تعرف اسم أم شادي ولم تسمع أن هناك أقارب لها بتلك الأسماء!.

لكن على أي حال عائلة بابي كبيرة وأنا أعرف أكتر عن عائلة "مامتي".

هكذا قالت فيما يبدو أنه كان بغير اقتناع!.

عموما هذا هو سلو البيئات العالية.

لكن حقا لماذا لا نعرف شيئا عن أسرة حسنى الباعث؟! وهو يأتى لنا و"كأنه واحد مننا".

– "يا عم حسني الباعث ليس له بهم أي صلة.. ده "أستغفر الله العظيم يا رب" والست كانت معروفة من زمان وراضي الأصيل عمل مثل قصص الأفلام، تزوجها وستر عليها والباشا أيامها حجز لهم شقة في البلوكات ومن حظهم إن البلوكات موقعها بميت عقبة وجنب المهندسين.. طول عمر الناس دي محظوظة".

هذا هو تقريبا نص حديث سيد طلال موظف السجل المدنى لحاتم فرج المحامي زميل وصديق شادى راضي عبيد.

والذي نقله لشادي فورا بلا تردد.

نهار أسود.. رنا الباعث أغلقت صفحتها على فيس بوك فجأة أو عملت "بلوك" هو البلوك ورانا ورانا؟!.

هههههه.. شادي كان يريد أن يقنعها بالنزول لميدان التحرير رغم أن والدها من رموز النظام.. لكن أبناء وبنات رموز كثيرين من النظام، كانوا يبيتون في خيام التحرير في الـ١٨ يوما المجيدة من عمر الثورة ويجوز أن تكون رنا منهم ولكنه لا يعرفها لأنها وضعت صورة الفنانة العالمية باريس هيلتون على الصفحة.. البنت ناصحة لأن الصور

الأصلية لا تجلب إلا البلاوي خصوصا مع "الفسابكة" من الناس البيئة والتربية الواطية.

ولا يمكن أو يجوز يكون أخوه آســـر أقنعها بأن تذهب معه إلى ميدان مصطفي محمود أو إلى روكسي أو حتى عند المنصة.

– أقسم بشرفي لأحبس سيد طلال الكلب الحقير.. ألا تعرف أنه مرشد أمن الدولة المفتري وكلب من فلول النظام السابق؟!.

– لكنه يعرف كل شــيء عنكم وكلام موظف الســجل بالدليل وهذ ا هو القيد العائلي.. ليس صـــعبا أن ينشـــره عنك يا شـــادي.. بضـــغطة كمبيوتر.. كل شيء.. وبالتفصيل!.

– يا شادي لم الموضوع واقنع موكلك بسحب الشكوى ضد سيد طلال ومذكرتك التى قدمتها باسم موكلك ضـده كانت قاسـة جدا.. أنصـحك تشترى سكوته.. لأنه صنف لا يفرق معه إنك ثائر أو حتى منسق ولا عضو مكتب سياسي لائتلاف أو متحدث إعلامي!.

"هذا ما قال له له وبالحرف حاتم.. مع احتمال لمحة من من التشـــفي والشـماتة.. لكنه صـديق وزميل دراسـة ومهنة ويسـتحسـن.. ويا رب يكون.. آخر واحد يعرف".

ليلتك قطران يا شادي.. فأنتم كلكم تشبهون أونكل حسني.

– أمي أشرف سيدة في مصر كلها.

– كلنا نقول ذلك.

أرجوك لا يمكن أن نهين كل الأمهات بسبب أم واحدة.

تزول الخطيئة وتبقى الأمومة.

ثم أنك لازم تشبهه طبعا.. أليس هو خال ماما يا حاتم؟.

مؤكد وعلى رأي المثل " الخال والد".

٦- عفريت في قصر النيل

كانت فرحة مصطفى طاغية حتى كاد يرقص وهو يبشرنى: مكتب في وسط البلد.. مكتب في وسط البلد!.

ولم أنتظر حتى يشرح لي.

: "في الطريق يا مصطفى احكي التفاصيل".

كانت نهاية رحلة بحث وبهدلة في كل مكان من أوطى بدروم فيكي يا مصر ولأعلى سطح فيكي يا قاهرة!.

"ولا يلقاها إلا الصابرون" صدق الله العظيم.. صبرنا ونلنا.

أخيرا مكتب سأبدأ فيه الخطوة نحو المجد الذي لا يعرف طريقه إلا من القاهرة وغير هذا كل كدب ووهم.

٧ سنين في أسيوط نوهم أنفسنا بالنجاح.. أنا كرجل أعمال ومصطفى كمحام، حتى أننا عندما جئنا القاهرة، ظننا أن رئيس الوزراء سيرسل مندوبا لاستقبالنا على رصيف ٨ بمحطة مصر.

لكن معاملة الشيالين وسائقي التاكسيات في المحطة، كسرت نفسيتنا.. وبات نجاحنا في القاهرة مرهونا باحترام الشيال والتكسجي.

و٣ سنين أخر كانت تمام العشر، في البحث عن مكتب مناسب مشترك ويصلح أيضا للسكن ولو مؤقتا، وياما نصبوا علينا.. سماسرة وتجار ومحامون أصدقاء وزملاء.. وكله في زحمتك يا قاهرة.

القاهرة هي مصر ومصر هي القاهرة.. وإن رغمت أنوفنا.. صعايدة وفلاحين وعربان ونوبة.. وحتى الغجر.

القاهرة هي الفاتنة الشمطاء!.

ساحرة أو داعرة أو فاجرة أو كما يسبها الصعايدة ساخرين "الآهرة".

نسخر أو لا نسخر.. نسب ونشتم.. ما الذي رمانا عليها سوى أننا نريد أن نشارك في إفسادها أكثر وأكثر؟!.

وتحت العمارة الضخمة جدا في شارع قصر النيل، ارتعدنا.. معقول يا بشر يكون لنا مكتب في قصر النيل وفي هذه العمارة؟!.

فتح البواب الشقة الصغيرة، فتملكنا خوف شديد ورعدة أكبر من التى كانت عند المدخل.

لقطة وحلوة ونحمد ربنا!.

وفي مكتب المحامي في العمارة نفسها، وقعنا العقد لنصبح نجوما تحت التمرين في مجتمع القاهرة الذي نلعنه كل يوم حتى نسلك الطريق إلى قمته!.

لابد من الاحتفال وليس أقل من غداء يرم البدن في مطعم من كباب في حي الحسين وبالمرة نصلى العصر هناك.

وعلى مقهى الفيشاوي بدأ مصطفى في عرض الترتيب للحياة الجديدة.

وضحك وهو يجيبنى عن تساؤلي عن سر هذه اللقطة عندما قلت له: أكيد العملية فيها حريم؟!.

. لا يا أخويا العملية فيها عفريت!.

كنت أعرف أن مصطفى له شخصية جادة تصل به أحيانا إلى حد الرذالة.

. بالفعل هناك من حلفوا لي عن قصة عن عفريت بالشقة!.

ـــــ يا فرحة ما تمت.. هو الفقر ورانا ورانا.. حتى في قصر النيل يا ولداه؟!

وأردفت وأنا أضحك مغالبا سريانا خفيفا للخوف

: يا ساتر عليكي يا مصر دايما كاسرة فرحتى ومكسرة مجاديفي.

واستغرق مصطفى في الضحك فقد فوجيء أنى أخاف من العفاريت!.

ـــــ ومن منا لا يخاف العفاريت يا روح أمك؟!.. بس كلنا شـجعان في النور!.

يا نحســـك يا منحوس من يومك.. الفقر قعد لك في قصـــر النيل يا حبيبي؟!.

وهدأ مصــطفى من روعي نصــف المفتعل ونصــف المكشــوف وهو يذكرني بأن الشقة مكتب للعمل فقط ولن نترك السكن المشترك بيننا في المطرية.

وقال وهو يمسح دموع عينيه من الضحك ودخان الشيشة

: لا تخف أكيد سـنجد شـقة تناسـب وضـعنا الجديد في قصـر النيل أو بالقرب منه.

فقلت متهكما

: طبعا أكيد العفاريت كثير في وسط البلد.

وكـان علي أن أذهـب لإنجـاز بعض الأعمـال ثم أعود إلى "مكتبي" الجديد في شارع قصر النيل.

وتناسيت قصة العفريت وأنا أتحسس نسخة المفتاح التى تركها لي لأنسخ عليها مفتاحا آخر وحذرنى من ضياعها فليس لديه نسخة أخرى.

وتذكرت قول الناس في بلدنا عن أن العفريت لا يظهر إلا للفرد، فيحس به ويراه أقرب العدد الفردي إليه كان وحيدا أم ثالث ثلاثة.. أما العدد الزوجي فلا يرون العفريت بل يهرب منهم.

فلذلك لن أذهب في الليل إلا بصحبة مصطفى أو أي شخص آخر!.

وبعد العصر وقبل الغروب بوقت كاف، كنت أسرع الخطى نحو العمارة ذات المدخل الفخيم.

وكانت الطرقات المتفرعة أمام المكتب مقبضة وباب الشقة المواجهة يؤكد أنها خالية منذ وقت طويل.. فهكذا وسط القاهرة، لا تجد فيها خرم إبرة إلا بجهدك يا جهيد.. ومع ذلك يكثر أن تجد عمارات بها شققا خالية لا يكاد أحد يعرف شيئا عن مالكيها!.

وانتابتنى رعدة وأنا أصعد ثلاثة درجات سلم في الطرقة القصيرة التى تفصل بين الشقتين ووقف شعر رأسي وأنا أرى شخصا في الضوء الخفيف يقف أمام باب الشقة!.

فتنفست الصعداء وأنا أقول: يخرب بيتك يا مصطفى نشفت دمي!.

نظر لي نظرة غاضبة قائلا وهو يهم بفتح الباب

: كأن تجهيز المكتب من اختصاصي أنا وحدي!.

كان يبدو مرهقا مغبر الشـــعر محمر العينين.. فقد كان يشـــرف على تجهيز المكتب ونقل بعض الأثاث والمستلزمات.

فهدأت بعد أن دخلنا معا ونسيت موضوع العفريت، بل واستسلمت لنوم عميق على الكنبة الوحيدة في الصالة الصغيرة واستيقظت بعد فترة لأجد مصطفى قد ترك الشقة وتذكرت وهو يوقظني ليخبرني أنه سيذهب إلى مشوار وسيعود متأخرا، فانتفضت فزعا والحمد لله أنه ترك نور الحمام مضاءً وإلا نزلت دون أن أغسل وجهي.

لابد أن أترك الشقة فورا، فلست على استعداد للدخول في اختبار للتأكد من وجود عفاريت من عدمه.

ويا فرحتى لو تأكدت من وجودها الآن!.

حقا.. رغم نشأتى في الصعيد وكثرة الحكايات عن عفاريت القتلى الذين تتناثر ذكريات قتلهم المريرة في كل مكان، رغم كل ذلك، لم أصادف أن رأيت عفريتا.. اللهم إلا القشعريرة عند السيرة أو الانقباض عند المرور على أماكن القتلى.

ولكن قبل أن أفتح الباب لأخرج، فوجئت بأن مصطفى قد عاد وأحضر بعض الأطعمة.

. أنت جوعان؟.

. الخائف لا يشعر بالجوع!.

. ألا تخجل من سنك وتصريحك بخوفك؟!

. بذمتك أنت ألا تخاف من العفاريت؟!.

ــ ومالها العفاريت؟!.. هل سمعت عن عفريت قتل أو سرق أو خان أو غدر؟!.. ويمكن أيضـــا، أن يكون العفريت على بعد خطوة منك ولا يؤذيك!.

. حقيقي قصة العفريت يا مصطفى؟!.

ضـــحك حتى دمعت عيناه المحمرتان من الإرهاق وأشـــار إلى الباب وقال: العفريت المقصـــود في الشـــقة المقابلة.. كانت مكتب محاســـب قانوني وخبير مثمن كبير وانتحر أو قتل فيها منذ خمس ســـنوات.. وزد على ذلك أنه كان مغرما بالآثار.. يعنى لو فاتك العفريت فلن تفوتك لعنة الفراعنة.

. كملت!.

ـــ كان المحاسب مغرما بالآثار.. لكنه يقتنيها ولا يتاجر فيها وأظن أن قتله أو انتحاره كان ذا صلة ما بالآثار وأنا سمعت عن القصة وعرفت تفاصيل أكثر من البواب.

ـــ أراك متعاطفا مع العفاريت ولا تخاف منها، فإن كان الخوف يجعلنى أصدق بها في ظروف معينة؛ فلماذا أنت واثق من وجودها هكذا؟!.

فسرح مصطفى بعيدا ثم قال:

ـ علمتنى دراسة القانون أن العدل ليس في المحكمة فقط، فالعدل موجود في كل مكان ولو عجز عنه القضـــاة والمحامون.. ولا يمكن أن تترك الحياة قاتلا ينفد بجريمته.. ولن يهدأ العفريت حتى ينتقم لصـــاحبه كما في الحواديت!.

ـــ قل كلاما غير هذا.. فالقضايا ضد المجهول في كل مكان وزمان لا تعد ولا تحصى.

ـــ هذا في الأقسام والمباحث والنيابة والمحاكم.. أما الحياة.. فلا يمكن أبدا!.

ـــ واضح أن مكتب قصر النيل ارتفع بمستوى تفكيرك وخيالك قبل أن يبدأ.. صحيح.. هناك فرق بين الصعيد وقصر النيل!.

ثم أردفت: لكن يبدو أنك متعاطف مع المحاسب وكأنك تعرفه.

. الموضوع أني متعاطف مع العفاريت!.

ـــ قلت لك إن الخوف هو الذي يجعلنى أصدق وكدت أرى العفريت في الطرقة قبل أن أفتح الباب ولكن حضـــورك بدد الخوف فعدت لا أصدق.. باختصار على رأي المثل "اللي يخاف من العفريت يطلع له".

ـــ أؤكد لك أن العفاريت حقيقة ولكن ليست بالسذاجة التى يخوفون بها الأطفال.. ووجودها وارتباطها بالجريمة مثل وجود العدل الذي ينكره الناس ويعترفون به حسب مصالحهم!.

ـــ لو رددت هذا أمام موكليك في هذا المكتب، فقد تصبح نجم المحاماة في وسط البلد.. فهذه الأونطة تعجب ناس مصر، فترتفع أتعابك وتزداد شهرتك!.

_ أنا أتكلم بمنتهى الجدية.. فماذا لو أفترضـــنا أن أحد الفلاســـفة أو العلماء في القرن الرابع عشـــر، حدثته عن فيروس لا يظهر حتى تحت الميكروسكوب العادي، بينما هو قادر على أن يدمر جسد فيل مثلا؟!.

. لكن العفاريت لا تدخل في نطاق العلم.

. ولماذ لا تقول إن العلم هو الذي لم يدخل بعد لعالم العفاريت؟!.

. كأنك تخوفنى أكثر.. حتى أترك لك المكتب وحدك!.

وضـحك مصـطفى ثم قام لترتيب بعض الأوراق وسـألنى وهو بالداخل: هل ستبيت هنا أم في شقة المطرية؟!.

_ وهل أترك قصـــر النيل حتى لو فيه ألف عفريت؟!.. بمجرد ما يطلع النهار، ســـأذهب لأنقل حاجاتى من المطرية ولأقيم بالغرفة الأخرى.. وممكن نبحث عن ورثة المحاسب وبالمرة نستأجر الشقة المقابلة وخليها عفاريت في عفاريت!.

وبعدما تناولنا عشـاءً خفيفا وشـربنا كوبين من الشـاي، نزل مصـطفي لتدخين الشـيشـة على المقهى على أن يعود بعد سـاعة فقد قرر المبيت والتفكير بجدية في المعيشة هنا رغم صغر مساحة الشقة.

وتركنى وقد اطمـأننت فلم أعد أخـاف لأن مجرد مجيئـه أكد لي أن العفريت وهم يخلقه الخوف منه.. فشتان ما بين غيابه وحضوره!.

وبعد حمام دافيء تمددت على الكنبة نفسـها التى سـتكون فراشـي حتى شراء سرير جديد في الصباح، واستسلمت مرة أخرى للنوم.

ولا أدرى ســاعة مرت أم أكثر عند عودة مصــطفى مرة أخرى لينام في الغرفة الأخرى.. فقد كان النوم ثقيلا.

وفي الصـــباح اســـتيقظت على طرقات عنيفة على الباب، فقمت فزعا لأفتح وأجد مصطفى غاضبا وهو يعاتبنى بشده ويقول

: لماذا لم تخبرتى أنك تنوى المبيت هنا؟!.. أنا طول الليل منتظرك في المطرية!.

وصعقنى سؤاله: هل عملت لي نسخة جديدة من المفتاح؟!.

سنة سودة!.. هل يمكن أن يكون ما حدث حلما.. لكن هل هناك أحلام بهذا الترتيب؟!.

وماذا عن بقايا العشاء وكوبي الشاي يا مصطفى؟!.

أنا رأيتك بعيني تفتح الباب وسمعت خطواتك عند عودتك من المقهى؟!.

والطامة الكبرى أن قصة المحاسب القانونى في الشقة المقابلة حقيقية ولكن مصطفى أقسم إنه لا يعلم عنها شيئا.. لا من البواب ولا من غيره!.

وتذكرت عبارته "لم نسمع عن عفريت قتل أو سرق أو خان أو غدر ويمكن أيضا، أن يكون العفريت على بعد خطوة منك ولا يؤذيك!.".

نهار أسود.. فكل شيء يؤكد أنه كان هنا معى وبات ليلته في الغرفة الأخرى وأنا أنام مطمئنا ولكن الفرق الوحيد هو أن عينيه كانتا أشد احمرارا مما أرها أمامي الآن!.

٧- الفضيحة حقيقية لكن سرية والشخصيات وهمية

لولا أن أطراف القصـــة أعرفهم، لما كتبت حرفاً واحداً ولكنها على ذلك مازالت تعبث فى صـــدرى رغبة فى أن أكتبها ولدى إلحاح يفوق إلحاح الضمير على كتابتها.

وأبطال القصـــة صـــحفيان وصـــحفية أو حســـب موضـــة الألفينيات "إعلاميان وإعلامية".. الأول كان رئيس تحرير جريدة خاصـــة لا يكاد يعرفها أحد فى أول مائة عدد.. والثانى مدير تحرير الجريدة نفسـها وهو لم يعرفه أحد لا قبل المائة ولا بعدها.

الأول.. حاتم صبيح.. فتى ممشوق الجسم تلمع فى عينيه نظرة سمسار شـــقق ويتحدث دائماً بلكنة تبين أنه ربيب البيوتات الراقية والمدارس الأجنبية ولكن الحاقدين يقولون إنه لا يعرف من اللغات أكثر ما يعرفه تلميذ الإعدادية.

وهو كان لديه هواية غريبة ولكنها منتشـــرة بين كثير من الرجال.. فلم تكن هوايته ســوى اقتناص الفتيات، بشــرط أن تكون الواحدة منهن على علاقة ما بأحد أصدقائه.. وكان يعشق أن يكون الخائن الذى لا يكشفة أحد.. وكم لاقى على صـــفحة وجهه من صـــفعات ولكمات ولكن كلها كانت فى السر أو فى دائرة محدودة من العلن.

ولكن هذه المرة كانت الفتاة خطيبة مسعد طولون أخلص أصدقائه وهو الطرف الثانى فسى القصة، بينما كانت هى الطرف الثالث.

كانت الفتاة اسمها "صبوة الحسيني".. صورة جميلة ورشيقة ولكن لا يهم جمالها ولا رشاقتها ولا حتى أناقتها كل ما يهمهما، هو أنها تبدو بملامح أرستقراطية وإن كانت تسكن مع أسرتها فى شقة إيجار قديم بمصر الجديدة ولديها سيارة فيات "فيورا" وبنطلونات ضيقة وجيبات قصيرة.

. وهل هذه هي الأرستقراطية يا ناس؟!

عموما إن كان كل هذا هو الحد الأدنى للأرستقراطية كما يرونها؟!.. فهى إذن استقراطية.

فهما من فرط شعورهما بالنقص ينظرون إلى أي نظافة في الملابس والمعيشة على أنها الأرستقراطية الحقيقية التى عاشوا حياتهم كلها لا يعرفون عنها سوى الحلم أو الحقد.

وكانت الآنسه فيورا خطيبة الطرف الثانى، قد شغفت به حباً وكان أكثر من شغف الحب، هو نظرة الدونية فى عينيه كلما رآها، فمع أن الفارق بينهما ليس فارقا كبيرا، إلا أنه رأى فيها تحقيق الحلم بأن ينتمى إلى طبقة ولو اقتصرت فقط على ما يشبه الوهم.

وأحمد عابد زميلهم وصديقهم كان دائماً ما يصف العلاقة بين صبوة ومسعد بالبريئة، معترضاً على وصفها بغير ذلك.. وكان يسخر –من ورائهم طبعاً– قائلا إنهما لو أغلق عليهما باب، فلن يجرؤ على أن يفتح عينه فى عينها.. فكيف بسوستة البنطلون؟!.

العجيب أن العلاقة بين الثلاثي، تبدو كثيراً وكأنها علاقة عداء يختفى ورائها ستار غير مبررمن الحب!.

فقد كان حاتم صبيح –الذي هو الطرف الأول– يكره أى انتصار صحفى لمسعد طولون –الذي هو الطرف الثانى–.

وعلى مقهى فى وسط البلد كان يتحدث من ورائه كأنما هو ألد الأعداء.. ولم يكن طولون يخفى كراهيته لصبيح كذلك.. فقد كان يتهمه بكل ما يخطر على البال من اتهمات ابتزاز، وصولية، عمالة للأمن، تافهة!.

وأحمد عابد الساخر من الجميع، عارضة يوماً قائلاً: لولا أن تهمة الشذوذ الجنسى ستطولك لقلت عن حاتم إنه شاذ جنسياً فبما ستبرر إذن صداقتك له لو أنك قلت إنه شاذ؟!.

وعموماً فمثل هذه العلاقات تجد فى الوسط الصحفى المرتع الملائم حسب كلام عابد، لأنه مثل الوسط الفنى هو وسط صناعة الأسماء والنجومية ولا يعترف إلا بالبريق ولو كان مزيفاً.

أما الآنسة "صبوة" الشهيرة بفيورا – الطرف الثالث – فقد كانت تلعب بالاثنين معا، فهي كانت على علاقة لم يكتشفها أي منهما، مع شاب نصفه مصرى ونصفه لبنانى وهو مدير مكتب رجل أعمال من أصحاب المليارات وشهير وكانت تلتقى به سراً.

ولولا الفضيحة –موضوع قصتنا– والتى جرت تحت الظلام الكثيف فى مدينة الشيخ زايد، لما عرف أحد هذه العلاقة.

فقد اصطحب سمير الأسيوطى الآنسه المحترمة إلى عشهما السرى فى فيلا خاصة به فى المدينة وهناك جر أحداث الفضيحة التى لم يكن من اليسير أن يكتشفها أحد!.

فقد اكتشف سمير فى يوم الفضيحة أنه نسى مفتاح الفيلا التى كانت تحت التشطيب ولكن تلفت حوله، فإذا بالمنتجع السكنى خال تماماً من العمال، حيث لم يكن قد تم تسليم الوحدات السكنية بعد لمشتريها.

وكان المنتجع واحدا من ممتلكات الشركة التى يعمل سمير سكرتيرا لصاحبها، وبرقت الفكرة فى ذهنيهما معاً.. ماذا لو مارسا المغامرة فى مدخل الفيلا الذى به بعض ألواح الخشب والبراميل المستخدمة فى عمليات التشطيب؟!.

المغامرة مغرية جدا ورغبة فعل شيء مختلف بدت أقوى بكثير من شهوة الجنس.

وفرش سـمير غطاء السـيارة وأحضـر علب البيرة "الكانزات" وبدأت طقوس الجنس تمارس تحت هواء الصـحراء المنعش في ليلة صـيفية غاب عن سمائها القمر، فتلألأت في ظلامها النجوم.

ولكن للحظ الأسود، لم تكن غريزة سمير وفيورا وحدها التى قادتهما إلى هذه الطريقة، فقد كان ثلاثة من عمال المبانى قد أتوا بفتاة ليل لقضـاء وقت مماثل فى الفيلا نفسـها، لأنهم يقومون بأعمال التشـطيب في الفيلا ويسـتطيعون الصـعود للدور الثانى باسـتخدام السـلم الخشـبى الملطخ بالجير ومعجونات الدهان ولا يتعدى عرضه ٤٠ سم.

وحدثت المواجهه بين الثلاثة وفتاتهم وسمير وفتاته.

وبالطبع لم يكن العمال الثلاثة يعرفونه وربما كان كل ما يخافونه، هو أن يكون سمير واحدا من ملاك الوحدات السكنية فى المنتجع.

غير أنـه في مثـل هـذه الأمور لا يعمـل العقـل ولايفكر ومطلوب فوراً وضع نهاية لمشهد المفاجأة البغيض.

وعلى ضـوء النجوم البراقة وأضـواء بعيدة خافتة، كانت حماله صـدر "صبوة" قد ترهلت على صدرها.

وصـب مشـهد الثدي العاري، مزيدا من الزيت على نار رغبة العمال الثلاثة.

فرصة ولن تفلت منهم أبداً بأن يجربوا اللحم النظيف البراق تحت شهادة مباشرة من نجوم السماء.

ولم تستطع صبوة المسكينة أن تفتح فمها بشئ وبدأت وكأنها تغالب القيء والثلاثة يتقدمون نحوها واحداً تلو الآخر، وكان سمير يقف كالفأر المذعور وتراوده محاولة الفرار، بينما تمسك به فتاه الليل وتقول له بسذاجة: لا تخف يا بك وانتظرهم حتى يكلموا ولن يؤذوك بشرط ألا تقاومهم.

والحقيقة كانت شخصية مثل شخصية سمير لا تملك سوى البكاء في مثل هذا الموقف المقزز والمفزع والمفاجيء، فانفجرت عيناه بالدموع لأنه فى الحقيقة خائف منهم على نفسه ولم يفكر فيها أبدا.. لأنه "ابن الندلة" كان لابد أن ينتهز فرصة انشغالهم باقتسام متعلقاته فهرب.. فقد أخذوا كل شئ حتى سلسلة المفاتيح وتركوا له فقط مفتاح السيارة التى لاذ بها، تاركاً صبوة وبعض ملابسه تحت أقدام الثلاثة ولا أحد يعلم كيف عادت صبوة إلى بيتهم – لكن على أى حال عادت – وظلت شهوراً لا تبرح البيت ولا تكلم أحدا.

وظلت عزلتها لغزاً محيرًا أمام مسعد طولون الذى كان يظن أن صبوة تفتعل أزمه لفسخ الخطوبة، بينما لم يهتم حاتم صبيح بالأمر كله وإن كان بين الحين والحين يزورها أو يحادثها فى التليفون، فلم تكن تتحدث

مع أحد سواه.. وكانت تطلب منه دائماً أن يخبر مسعد بأنه لا صلة له بما يحدث لها، فهى تمر بأزمة نفسية وستعود إليه.

ولكن أحاديث وحوارات وقصص، كانت تدور على مقاهى المثقفين فى وسط البلد حول أزمة صبوة أو كما يسمونها "مس فيورا".. وكان الكثيرون يتهمون حاتم بأنه السبب لأنها تحبه هو وتتخذ من مسعد خطيبها التعيس فقط، سكة للوصول إليه.

وحاتم نفسه لم يكن يتورع عن التلميح بذلك، بل ويزيد بقصص عن علاقة سرية بينه وبين صبوة وكم كانا يسافران معاً إلى الإسكندرية والإسماعيلية.. وهو لايعتبر ذلك خيانة لصديقه لأنها تحبه وتهيم به، بل وزادت أن أعطته جزءاً من عذريتها كمنحة حب لا ترد – كما يزعم – ووعدته بأنه سيحظى بالباقى قبل زواجها من مسعد أو من غيره!.

وفى ركن البار الصغير الخافت الضوء، كانت فقايع البيرة شاهدة على قصص حاتم الوهمية والمتناقضة، فهو يكذب كثيراً وينسى أكثر مما يكذب.. فـ"الكذاب نساى" كما يقول المثل الشعبى ولكن البعض يقاوم التصديق فى هذه الأحاديث والأكثر يقاوم التكذيب.

ولكن صبوة اتخذت قراراً خطيراً فى حياتها فور خروجها من عزلتها، إذ أسرعت بالاتصال بمسعد لتطلب منه أن يسرع بعقد القران ولم يكن

مسعد يصدق نفسه إذ وجد أن قرار صبوة، تكذيب فعلى لكل ما يتردد عن علاقتها بصبيح.

ولكن لم يصل إليه ولا لغيره أي شئ عن حادث الاغتصاب وهي بالطبع لم تخبر أحداً سوى أمها ولولا أنها عادت ليلتها تحمل آثار ما حدث، لما أخبرتها.

وأما عن مسأله الإبلاغ عن الحادث، فقد كانت فكرة سخيفة سرعان ما تم إلقاؤها بعيداً بلا رجعة، فالإبلاغ عن الحادث سوف يكون فضيحة تلتصق بصبوة وعائلتها مدى العمر وحتى لو أمكن تبرير ذهاب صبوة إلى المنتجع كصحفية تقوم بتحقيق ما عن المشروعات السكنية مثلاً، فإن ذلك لا يكفى.. فمن المؤكد أن المغتصبين سوف يكشفون كل ما رأوه، بالإضافة إلى أن سمير الأسيوطى أثبت بمالا يدع مجالاً للشك، أنه أكثر المخلوقات جبنًا ونذالةً، فلم يحاول فعل أى شئ ولو حتى بالتوسل وبدا خائفاً مرتعداً، بل وربما شمت فيها والثلاثة يقلبونها فيما بينهم.

وبعد عملية سريعة لدى طبيب في عيادة أنيقة بالدقى، عادت صبوة عذراءً كاملة العذرية.

وهى على أى حال كانت سوف تلجأ إلى هذه العملية ولو لم يكن الحادث.. وكان قرار الأسرة أن تعيش صبوة بعد زواجها فى شقتهم، فلم

يكن سـواها مع ماما بعد زواج ٣ من أشـقائها وهم لا يحضـرون لزيارة أمهم إلا فى المناسـبات والأعياد فقط، واثنان فقط منهما دائما السـفر للخارج والجميع يرغب في إتمام الزواج، ذلك لأن صـبوة كانت دلوعة العيلة ولا يمكن أن يرفضوا لها رغبة، بل وكانت تكاليف الفرح هدية من الأشـقاء الثلاثة لأختهم الوحيدة واعتبروه تعويضـاً عن تقصـيرهم فى رعايتهم لأختهم وأمهم بسبب مشاغل الحياة التى تلهيهم.

وتم الفرح وكان حاتم صـبيح يقف فى الحفل كأنه صـاحب الفرح وملامحة تعبر عن سـعادة واضـحة وكأنه لم يتخل لحظة واحدة عن صديق عمره!.

أما قدم مسعد طولون على الأسرة وعلى صبوة، فكان قدم الخير والهنا، إذ تواكب النجاح الكبير لشركة المقاولات التى اشترك فيها شقيقان من الثلاثة أشقاء، وكان مسعد وسيطهم في صفقات مع رجل الأعمال الكبير صـاحب النادى الذى إذا دخلة أحد الإعلاميين كان آمناً على حياته، حاضرها ومستقبلها.

وجاءت الفرصـة لصـبوة بأن تكون كاتبة روائية بعد أن أصـدرت مجموعتها القصـصـية الأولى وتلتها رواية ثم ديوان شـعر ثم مقال أسبوعى فى جريدة خاصة ذات شهرة كبرى وجاء مسعد طولون مديرا لتحرير هذه الجريدة التى يساهم بنصيب النصف فيها رجل الأعمال الكبير جداً جداً.

وهجر حاتم صبيح جريدتهم الضعيفة ورأى أن الابتزاز ليس هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق الثروة التى يحلم بها، فانتقل إلى الجريدة الخاصة كواحد من كبار مسئوليها، ثم رئيساً لتحرير موقعها الإليكتروني وبرنامج على قناة فضائية تابعة لرجل الأعمال الكبير جداً جداً.

أما بالنسبة إلى سمير الأسيوطى.. فقد ظهر فى النادى وكان يهمس لحاتم صبيح بتفاصيل الليلة على سبيل التشفي في ضحيته التى قطعت علاقتها به بعد الليلة المفزعة، لكن حاتم لا يريد أن يصدق شيئاً عن صبوة التى رفعته مع زوجها إلى مصاف الصحفيين – معذرة – "الإعلاميين" الكبار.. وهما لايزالان فى ذروة الشباب.

وكان القرار الصادر من رجل الأعمال، مرضياً لحاتم صبيح، إذ أنهى عقد سمير الأسيوطى وأصدر قرار بمنعه من دخول أية منشآت خاصة بالشركة وخصوصاً النادى!.

وكان حاتم حريصاً جداً على ألا يصل شئ مما تهرأ به سمير الأسيوطى إلى مسامع صبوة التى لم تعد كالأمس "مس فيورا" فلم تعد تليق بها نسبتها إلى أي صناعة محلية.

وهذا أقل ما يمكن تقديمه لصبوة على سبيل الاعتذار عن كل ما أن قاله فى حقها وحق زوجها صديق العمر.

٨- لما سجدت صخور وادي مندي

_ أتعرفين أن هناك لغة تتخاطب بها الكائنات من حولنا، فلا نفهمها وهي أيضا لها زمنها الذي تعيش فيه ولكننا لا ندرك ذلك!.

هكذا كنت أقول لـــ"ماريانا ياروسلاف" الفتاه الأوكرانية التى قدمت إلى شرم الشيخ خصيصا لتعرض جلدها للشمس فتكتسب اللون البرونزي.

أبوها فلاديمير ياروســلاف مديرمفاعل نووي وروائي، يعيش في روســيا في مدينه لا أذكر اسمها.

كانت ماريانا تصـدق أي شـيء، ونحن نسـتمريء تعاملنا الخسـيس مع هذه الأخلاق النبيلة بمنتهى السفالة والانحطاط واللاشعور بالذنب، ونبدأ ذلك من السخرية وننتهى بالنصب العلني!.

وأنا كنت أعاملها على أنها "هبلة" وهذا هو التفسير الوحيد الذي يجعلنى أقبل داخليا قيامها بنزع حمالة الصـدر من المايوه، لتسـتلقي على الـــــ" شيز لونج" على البلاج أو أمام حمام السباحة الكبير في الفندق، ولتترك أشـعة الشمس تغزو خلايا جلدها، بينما تتصـارع خلاياي في داخلي وأنا بجوراها.. فلا سبيل إلى خلع بقية المايوه في إحدى غرف الفندق، سوى بأن أبدو لها إنسانا مؤدبا!.

قال لي صديقي مدير حسابات الفندق: كثير من السائحات من أوروبا لا يمانعن في ممارسة الجنس، بل يرحبن بذلك جدا ولو لم تعرف اللغة، فهن يتعاملن مع الجنس كدعوات الرقص في مشـــاهد الأفلام القديمة.. لكن تفرق معهن طريقة الدخول والعرض!.

وهن أيضا يعشقن في الشرق العربي شمسه وسحره.. وعرفت في خلال فترة قصيرة من إقامتى في الفندق ورحلات السفاري في أودية سيناء، أنهن يكرهن من يحتقر الجنس ولا يرضين أبدا بمن يتعامل معهن على أنهن يرغبن في الجنس كعاهرات.. حتى ولو كن بالفعل قدمن لممارسة الدعارة!.

يا سيدي.. منتهى الاحترام!.

طبعا احترام.. ولكنه احترام من نوع تلك البراءة الطفولية التى تجعل نظرات ماريانا وهي تنزع قطعة المايوه العلوية وكأنها طفلة ســـترســـم صورة في كراسة الرسم!.

لابد أن أبدو مختلفا حتى تحبنى وتمنحنى بحرارة جلدها، حصـــيلة أيام تحت شمس شرم الشيخ الساخنة.

: هل تعرفين يا ماريانا، أن جبال "وادي مندي" تبدو ساجدة، بل وتخشع عند الغروب وفي ســاعات الســحر لها أنين وكأنما تتمتم بالتســابيح!.. هنا قريبا من الوادي المقدس.. يبدو القمر في شكل آخر!.

: تعالى أريك عندما يصـــير القمر بدرا؛ كيف يبدو وكأنه اقترب؛ ولما شــاهدته أول مرة بعد أن عبرت نفق الشــهيد أحمد حمدي، خفت منه.. وارتعدت عندما كانت تصــعد الســيارة مطالع الطريق وكأنها متجهة في رحلة قصيرة إليه.. أوو أوو أوو.. يبدو أحيانا يا صغيرتى أنه أقرب إلى الأرض من قمم الجبال.

ارهفي الســـمع يا ماريانا؛ فالقمر يحدث الجبال هنا.. والأودية تأتمر بأمره.. هناك يا عزيزتى جوقة من الكائنات الخفيه تودعه وهي تســتقبل الشمس.

هكذا وجدنا في برديات الفراعنة الذين كانوا يسمون سيناء أرض القمر . على فكرة هذه معلومة حقيقية-.

كما أن من أسماء الضياء اسم "سنا" في اللغة العربية يا "حبيبتي"

وحقيقي أيضا ان اسم سيناء جاء من اسم إله القمر "سين" أو "سينين" المذكور في كتابنا المقدس في الإسلام.

: سامحنى يا رب، فهذه أيضا، معلومات حقيقية.

وكانت ماريانا تسلم شفتيها لى تحت تأثير هذه الترجمة الكونية السحرية التى جعلتنى سيدا على قلبها وجسدها في بضع أيام.

: لا تظنى أن الصـــخور العملاقة صـــماء كما تبدو، فلتلك الصـــخور حياتها التى تحكمها قوانينها الخاصة، لكننا لا نراها وهي تتمدد وتتكمش ولا نســـمعها وهي تتحاور في جزر "تيران" وعلى جانبي خليج العقبة، ليكتمل رســـم شـــكل البحر الأحمر!.. فهذه البحار كائنات حية مثلنا، تتشكل وتتسمى.. ولها حياتها ولغتها وأبجديتها الخاصة أيضا.

إن البحار حين تتكلم تثور، نســـمي أحاديثها أمواجا ونوات ودوامات.. وحين يهدأ البحر، يهدأ ليهمس إلى صـخور الشـاطئ ورماله، يلامسـها في رقة كما يلامس جلدي الخشـــن جلدك الأملس يا معشـــوقتى الأسطورية التى تجسدت لي في الواقع!.

وكذلك عندما ترتعد الأرض؛ نقول: زلازل.. أو تنفث ما في جوفها فنقول: براكين.

هذا هو العالم الذي تتكشـف أسـراره، فيجد الإنسـان نفسـه منسـابا في دورته الأبدية، فتتبدد غربته بين الأشياء، فيصر منها وتصير منه!.

وكل هذا وماريانا ما زالت تصدقننى!.

ولكنى أضـحك في نفسـي على هذا "الهبل المقدس" وهي تتنفس انبهارا من قدرتى على التناغم مع أسـرار الكون وأن أكشـف لها عن حقائقى الأسطورية.

وحق النعمة كانت تصـــعب على قلبى وهي تقول لي: أنا وجدت فيك سر الوجود.. وكنت واثقة جدا، أنى سأجده عندكم!.

"سر وجود إيه يا أمه؟!".. هكذا أحدث نفسي ضاحكا.

وأسـبوع إجازة إضـافي.. بعد انتهاء المهمة التي سـافرت من أجلها إلى شـرم الشـيخ وإقامة خلال هذا الأسـبوع في جناح خاص مع ماريانا وأما باقي أسرتها، ففي جناح آخر حتى لا يزعجونا!.

وعليه.. وعد بزيارة سياحية – على حسابهم – لعدة منتجعات عالمية.. وممكن بعد كل هذا.. الزواج من مـاريـانـا وتتفتح لك طـاقـة القدر يـا معلم!.

فـــ"القديسة العبيطة" عشقتنى بسبب هذا الخطل الذي أنصب به عليها وعلى أهلها!.

وماذا يعنى؟!.. أليســت "ألف ليلة وليلة " وأســطورة "إيزيس وأوزوريس" خطل في هرتلة؟!..

ومع ذلك هي سر انبهارهم بتراثنا وآثارنا وسحرنا.

وسـحر في سـحر.. حتى بدأت أصـدق نفسـي، تماما كالنصـاب الذي يعيش الدور في الشـخصـية، فيصـدق ما خدع به الناس وينتهي بخداع نفسه!.

: لكن انتظر.. انتظر.. انتظر.. هاهي ماريانا قد رحلت على وعد بالعودة أو السفر إليها، ولكنها لم تعد وأنا لم أسافر!.

وها هي حصيلة كل ما حدث قد أصبحت ذكريات تبعث على الكثير من الضحك والقليل من الندم!.

: مهلا.. مهلا.. مهلا.. قسما عظما.. إنني لم أصل إلى درجة خداع النفس.

ثم إنى أحببت ماريانا بالفعل قبل أن تسافر.. وإن نسيتها بعدما سافرت.. لكننى بالفعل كنت أرى الجبال تسجد في وادي مندي.

والمصيبة السوداء أني قريبا قرأت وسمعت عن كتاب عالم جيولوجي اسمه "بول ديفريكس" يؤكد أن الصخور لها أصوات كالموسيقى واسم الكتاب "Soundtracks Stone age" يعنى "موسيقى العصر الحجري" والكارثة أنه يبنى على ذلك افتراض أن اختيار أماكن وبناء المعابد في حضارات العالم القديم لم يكن اعتباطا.. "والله يا ربي أنا أتكلم بجد"

ثم فوق كل ذلك، هو هذا الذي عاينته بنفسي وأنا في كامل قواي العقلية، وهو أن القمر كان أكبر وأكثر لمعانا من أي مكان آخر وأنا في طريقي إلى شرم الشيخ!.

لن أخدع نفسي.. لكن هذه هي الحقائق نفسها التي كنت أضحك بها على ماريانا!.

٩ - بنت للكبار فقط

هذا الرجل يبدو وقورا فوق الاحتمال، اشـتهر بين الناس بدماثة خلق لا نظير لها واسـتطاع بقدرة عجيبة أن يحافظ على مسـافة سـمك الشـعرة بين الوقار والتعالى.

قرر ترشيح نفسه في النقابة المهنية التى ينتمى إليها، وجاء فوزه كاسحا وكان شـــعاره الذي يروجه أنصـــاره، أنه رجل وقور... فقط وقور.. لا شـــيء غير ذلك، فمن يراقب أداء عمله يجده مثله مثل غيره، لكنه لا ينافق، لا يرائي، لا يداهن.

. يا سلام.. وهل هناك صفات للوقار غير هذه؟!.

_ كـأننـا يـا أخي لا بـد أن نحمـل أخلاقيـات الملائكـة، حتى يمكن أن نوصف بالوقار!.

لكن هناك من لا يتحمل أن يرى أثرا للاحترام.. ما أقذركم يا أولاد السيدة التى امتهنـت مهنـة غير محترمـة؟! (يجـب أن نكون محترمين ولو في السباب.. ولوعلى سبيل الهزل).

أقول قولي هذا.. لأن كلمات بدأت تتبعثر عن قصـــة حب ملتهبة في حياة الرجل الوقور، كانت بطلتها فتاة تصغره بأكثر من نصف عمره!.

والمرؤ بأصــغريه، قلبه ولســانه، فقد اســتطاعت الفتاة بأنوثة طاغية أن تملك منه أول الأصغرين.

كيف؟!.

لأنها كما وصـفها محمود عبد العاطي عندما اتسـعت عيناه عند رؤيتها لأول مرة وهو يشدد قبضة يده

: شديدة قوى!.

كانت الفتاة حلوة القسمات تمتزج بملامح أنوثتها الناضجة؛ براءة طفولية وجرأة قططية.

مسكين ياوقور، فأنى لك أن تتحمل كل هذا منها؟!.

ومع أن الافتعال واضــح في كل تعبيراتها، لكن اتقانها للكبرياء وإجادتها لتمثيلها، تجعل الكثيرين يتراجعون.

وكثيرون يســـقطون يوميا، بل ســـاعتيا وربما لحظيا، أمام أنوثتها وشياكتها، ولا أحد يمكن أن يرفض لها طلبا، فإن لم يكن إكراما للأنوثة، فخوفا من الخربشة.

ولكن كيف وصلت إلى الرجل الوقور الذي هو الرجل الثاني "مكرر" في المؤسسة؟!.

. الله أعلم.. هو وحده عالم بالسر.. ملعون أبو الفتنة ألف مرة!.

قال الحاج مدين سكرتيره في العمل: "والله يا ابنى الراجل محترم وطيب.. بس دي ناس معندهاش دين ولا خشا".

قال مدين هذا الكلام، بعد أن خرجت الفتاة من مكتب الرجل الوقور إلى الحمام وهي تسوى ملابسها وتصلح الميكياج!.

وكانت كثيرا ما تودع الرجل الوقور فتهمس برقة – وحياة ربنا مفتعلة – : "لا إله إلا الله"

أستغفر الله العظيم.. لكن هذا من تقاليد العاشقين من المسلمين أن يفترقوا وهم يهمسون بعبارة التوحيد!.

:هو الحب حرام يا ناس؟!

. لا أحد يستطيع أن يجيب!.

وعموما الكل يمارس الحب سرا وعلانية.. حراما وحلالا، كونه هذا أو ذاك، فلن تتوقف ممارسة فعل الحب بكل وسيلة.

الوقار فقط في البدلة والكرافتة، لكن المؤكد أننا لا يمكن أن نعيش أو نتصور أن أحدا يعيش يومه كاملا بالبدلة والكرافتة.

ـ ثم إن آباءنا وأمهاتنا يمارسون ما هو أكثر من الحب وهو بالضبط ما يسمونه في بلاد الغرب Lovemaking وترجمتها الحرفية "ممارسة الحب"!.

إذن فما الداعي للعجب من أن يعشق القس سلامة وهو التقي الورع الطاهر؟!.

لكن الرجل الوقور متزوج من سيدة أجنبية، منذ أن كان في بعثته بعد تخرجه من جامعة القاهرة!.

وهو لديه أولاد ربما يكونون قريبين من عمر فتاته!.

وهذا أيضا ليس مانعا للحب، ففي مثل عمر الرجل الوقور، يحتاج المرؤ إلى من يجدد له خلاياه.

وها هو قد اقترب من الستين، والعمر يمر ولا يكسر مرارة الشيخوخة القادمة بقسوة، سوى حلاوة بنتوتة صغيورة تجدد كريات دمه، ليعود القلب لدقات لها رنين آخر لمعانى بعثت من جديد، إن لم تكن ولدت لأول مرة!.

انتظار.. اشتياق.. لهفة..حيرة.. كلها مذيبات طبيعية لجلطات الرتابة اليومية في مثل هذا العمر.

فأحاسيس الشباب تعيد الشباب، ثم إن الرجل محتفظ بوقاره حتى في علاقته معها، فلم يرهما أحد في أي مكان مريب أو غير مريب.

فقط في المكتب.. ولا شيء في المكتب سوى رواية الله أعلم بصدقها رواها عاطف الجرسون عندما فتح الباب في غياب مدني السكرتير فوجدها تسند رأسها على صدره وهما ممددان على الكنبة.. فقط ليس أكثر!.

هناك أيضا دليل آخر ظهر في عتاب شديد اللهجة أمام المكتب، وكان عتابا صامتا بين رئيس المؤسسة والرجل الوقور.

ويوازيه عتاب لها مع الحارس الشخصي للرئيس بعد أن خرجت من المكتب مرعوبة، لأن الحارس لم ينبهها لقدومه.

. "يا ست أنا وظيفتي أمشي وراه مش قدامه".

ومع ذلك فبعدها لا شيء حدث، والتردد على المكتب ظل كما كان!.

فالقسم الذى تعمل به يقع في مواجهة مكتبه مباشرة.

وبالمناسبة، مرة جاءتها مكالمة تليفونية على تليفون القسم وكان المتكلم متلهفا ويلح في ضرورة أن يكلمها، فذهب أحد الموظفين الجدد لإخبار مدين السكرتير ليخبرها في الداخل وهي مع الرجل الوقور، وفيما يبدو كانت التعليمات مشددة بألا يدخل أحد لأي سبب، فرفع سماعة التليفون

الداخلى ولكنه تردد وأغلق السـماعة غاضـبا دون أن يجرؤ على مجرد الضغط على الأرقام لإجراء مكالمة على تليفون داخلي.

أشاح بيديه وقال في حدة اعتذرعنها فيما بعد

: قل للتليفون اللي طالبها أي حاجة وخلصنى يا بني!.

والموظف الجديد عاد ليجد نائب رئيس القســـم يعنفه لأنه ذهب في محاولة بريئة لإخبارها بالتليفون!.

. بريئة ولا مدانة.. أنت مال أهلك!.

. كان واضحا من لهجة المكالمة أن طالبها أخوها أو من أهلها.

. ألا صحيح.. من هم أهلها؟!.

هي من عائلة كبيرة، فأخوها يشــغل منصــبا خطيرا في جهاز أخطر.. ولكنه رجل طيب جدا وكل الذين التقوا به أشادوا بحسن خلقه ومعاملته.

_ إذن هناك من الناس الطيبين من يشــغلون مناصــب خطيرة في هذا البلد!.

. وهناك أيضا من الخبثاء!.

الطيبون والخبيثون هم الذين يعتلون المناصب في هذا البلد والـ"بين بين" يظلون "بين بين" حتى في المناصب!.

لكن ماذا عن معرفة أهلها بالعلاقة؟!.

الرجل الوقور صديق الأسرة.. وكفى!.

ولكن تسمع عنه وعن وقاره في كل مكان حتى خارج المؤسسة!.

كلامه هاديء لا ينفعل بسيط وصريح وواضح.

رجل شريف وجريء ومحترم في زمن انعدمت فيه القيم!.

هكذا قالوا عنه وهم يهمسون بقصته معها!.

مادام يعيش في وسط مثل هؤلاء، فهو بالفعل يستحق كل الأوصاف السابقة وذد عليها أنه لا يهتم بشئون غيره ولا يمسك سيرتهم كما يمسكون سيرته.

ثم إن الرجل يصلي الوقت بوقته ويشاركهم الجمعة.. ياعم نبرة صوته تقول إنه محترم.

لكن هذا بكون لو لم يتدخل في عملها كما قلنا، لكنه يسندها في العمل ورئيس القسم لا يستطيع أن يحاسبها على شيء مع أنه شديد في إدارته لكن عندها ويفرمل.

مرة حدثت مشـــادة كبيرة بينهما أمام عدد من الزملاء، ودخلت لتشـــكوه إلى قيادة من القيادات وإذا به يستدعي رئيس القسم ليلحق بها، ولا أحد يعرف ما دار بينهم في المكتب المغلق، ولكنهما خرجا منه يتضاحكان.

ترى لماذا لم تستغث برجلها الوقور واستغاثت بالقيادة الموازية له؟!.

هو لا يتدخل بصـــورة مباشـــرة وغير معقول هو الذي يتصـــدر كل مرة بلهجة حادة حاســـمة ويطلب من رئيس القســـم أن يحســـن معاملة مرؤوسيه.

لكن البنت ملعب واللعب على كبير.. وكبير جدا.. فوق التصور!.

أصلها متخصصة في غزو الكبار.. فهي "للكبار فقط".

لكنها فجأة.. اختفت.. وهي عندما تختفي ليســـت بحاجة لطلب إجازة.. مهما طالت!.

وظهرت وهى تضع الإيشارب الأنيق كشروع في ارتداء حجاب!.

: تزوجت؟!.

ـــ من ملياردير سمعته زي الزفت ونصاب متفق عليه.. شافعى ومالكي وحنبلي وحنفي!.

: والرجل الوقور؟!

. ظل وقورا!.

وفجأة مرة أخرى، صـارت ضـحية تشـكو من النصـاب الأعظم في بر مصـر المحروسـة التى لا يكبر فيها غير حاميها أو حراميها، هذا إن لم يحمل الصفتين شخص واحد!.

وهناك من هو أكبر منه، وقلبها يتنقل حيث شاء من الهوى!.

ومرت الأيام ودارت الأيام.. وبعدها تزوجت رجل على العكس تماما ولكنه كبير أيضـا، غير أنه لم يأخذ غلوة في لقاء معها بالصـدفة في الأسانسير وكأنها سكنت خصيصا في البرج الفاخر لتوقع به!.

وجمعت هي بين حاميها وحراميها!.

هذا الرجل نفسـه، سبق مرة أن تهرب منها في أثناء سـعيها للطلاق من زوجها السابق الذي ضحك عليها – يا حرام– وتزوجها!.

منعها من دخول مكتبه وسـمح لها بدخول بيته، لكن على سـنة الله ورسوله.

ــ ثم إن طليقها اللص، نصب على مصر كلها، أفلا ينصب على طفلة بريئة مثلها لا تجدي مخالبها القططية معه شيئا؟!.

يا عم لا تتعب نفسك، يجوز لو كنت كبيرا لرأيت وشعرت بما لا يراه الصغار ولا هم به يشعرون، ولتصدق أن الوقار له قواعد لا تفهمها في عالم الكبار.. والسؤال

: هل الرجل يبدو وقورا أم لا؟!.

. الشهادة لله هو يظهر كذلك.

. يبقى تخرس وتتلم حتى تتعلم كيف ترى الناس المحترمين!.

. حاضر!.

ـــــ برافو.. أنت إذن رجل تقف على طريق الوقار ويجوز أن تكون لك حياتك في شبه السر أو شبه العلن.

المهم هو أن هذه الفتاة عقدت ناس كتير، ليس بسبب الحب؛ إنما بسبب قوة السحر الإيزيسي ولا تقل لي سحر هندي أو إفريقي أو مغربي، فمصر أم الدنيا.. أصل السحر الذي يأخذ بالألباب، فلا يقف أمامه وقار قلب ولا عقل!.

١٠- "قالت لي الجدران"

"صفحة مخبوءة في دفتر الذكريات"

ذكرياتي هذه المرة مع الجدران!.

فحقيقة لم تكن لي بها علاقة مباشـــرة لأننى لســـت من قاطنيها.. لكن ذكرياتى كلها ارتســـمت على هذه الجدران، فما الجدران إلا وعاء الذكريات، لأنها هى وحدها التى تقتطع فكرة المكان من الفضـــاء العشوائي، وتحبس الأوقات من ذلك السيل اللانهائي المسمى بالزمان.

الجدران هي المنازل.. هي المدارس.. هي المقاهي.. هي المتاجر.. هى التى تعطى الشوارع والقرى والطرقات والمدن ملامحها وجزهرها.

بلا جدران فالوجود خلاء مموه فارغ أو ملاء أصم مصمت بلا روح!

هي الجمال وهي القبح!.

هي الحزن وهي الفرح!.

هي التى تكتب أيام حياتك في داخلها أو في خارجها!.

فكاذب ذاك الذي يظن أن الجدران بلا حياة وبلا روح!.

وأصم ذاك الذي ظن أنها لا تتكلم!.

في رحلتى الأخيرة إلى موطن ذكرياتي، تحســـت الأرض وأنا أســير بالقرب من المدرســـة الثانوية ومن المخبز ومن المقهى ولكني عندما أردت أن أعانق جدران مدرســـتى القديمة أنكرتني، فانكرتنى بعدها كل الجدران!.

نعم أنكرتنى، فلا هي مدرستى ولا البيوت التى تحيط بها تريد أن تشـهد بذلك

وقالت لي الجدران

: أرجوك لا تنتحل شخصية ذاك الفتى المغبر الرأس، فنحن لا نعرفك.. ها نحن أيضا قد نسناه.

وقلت للجدران كأني أهددها

: لكنك إذا أنكرتينى، فأنت بذلك تنكرين أنك كنت يوما تحيين قبل أن تصيرى جمادات لا روح فيها فوق هذه الأرض.

لكن الجدران تجاهلتنى ولم تعبأ بالنظر إلى قبل أن تعود إلى فقرات بيضاء فاصلة في صفحات صمتها الكاذب.

: لو ســـمعك غيري لأيقن بجنونك، فارحل إلى جدرانك الوهمية التى جئت من عندها، فقد تركتنا حتى نسيناك ولن نذكرك بعد أبدا!.

لكني لن أقول إن جدراني التى أنكرتنى كانت قبيحة أو أن قبحها كان من لدنها، فإن القبح روح خبيثة بثها الشـــيطان في تلكم الفراغات فيما بين الكائنات الآدمية!.

وعدت إلى الشوارع أقتلع الخطى منها، مع أنها لم تعد تتشبث بي عند عوداتى الأولى إليها منذ عهد قريب!.

هناك على ناصية حنونة في شارع هادئ، كن يمشين، ثلاث فتيات سمراوات، ابتسمت إحداهن في براءة وقالت أقربهن في المسافة بعد أن انفصلت متعمدة بخطوات، بينما أنا جالس مع صديق "نسيت اسمه "على رصيف أسفل مدرسة ابتدائية

: أنا أعرفك وأنت تعرفنى، فربما يصـــعب أن تتبادل شـــفاهنا غير الابتسامات في غير هذا المكان.. لكن احذر فإن ابتساماتى بريئة!.

: أعرف ذلك تماما بالرغم من جرأتك.. إلا أنك تعرفين أننى هنا في انتظار أو لأني أبحث عن غيرك.

: أما أنا فمشغولة بغيرك وربما أنت تعرفه أيضا!.

ثم أردفت في حيرة انتفضـــت في صـــفحة وجهها فبدت أكثر نقاءً: ألا يمكن ألا يكون بين اثنين مثلنا سوى الحب؟!.

ومضـــت بعيدا بينما أنا حائر فيما كانت تردده تلك الفتاة التى ســـقط اسـمها من ذاكرتى ولكن بقي منها حديث دار بين أربعة عيون بحروف غير صالحة لأن تنطق بها الألسن ولا تترجم إشاراتها الآذان.

يا ربي.. حتى الشوارع كادت تمحي في أرضها ذكريات الخطوات؟!

"آه ياقبلة أقدامي إذا شكت الأقدام أشواك الطريق..

وبريق يظمأ الساري له أين من عيني ذياك البريق".

هكذا أمسك شـعر إبراهيم ناجي شـاعر الأطلال بلسـاني، بينما "حمدي أسـتك" زميلي وصـديقي يسـخر منى ونحن نسـرع الخطى في الطريق الممتدة إلى قلب مدينة الألمونيوم

: قبل يا خويا الأقدام قبل.

كانت الطريق الأســـفلتيية المتلوية، غير قادرة على أن تمحو آثار الخطوات، فتبقى متشبثة واضحة المعالم لا تطمس منها شيئا حتى أمر عليها مرة أخرى.

أنت صديقتي المخلصة يا أيتها الطريق!.

ففي هذه الزاوية رأيتها فطأطات رأسها وأسرعت خجلة، لكن نظرة خاطفة أرسلت إلى ببرقية فيها ألف ألف كلمة، بعد هذه الخطى بقليل، انحنيت بالدراجة، لكني ارتطمت بالرصيف وسقطت من فوق الدراجة وقمت فزعا خجلا في المنحنى الخالي لأنظر حولي

: الحمد لله أنها لم ترني!.

: لكننا رأيناك "بأمارة ما قاله لك عيسى عبد الشافي بعدها: "يخرب بيت سنينك.. إنت كسرت العجلة بتاعتي أكتر ما هي متكسرة".

وأنت كنت يومها صديقتي المخلصة يا أيتها الجدران!.

فكم حفظت من أسرار لم أكن أخجل وأن أستعيدها مرسومة على ظلالك!.

: فها أنت تذكرينني.. فلما أنكرتني الآن إذن؟!.

ولكنها عادت تلوذ بصمتها الخادع كعادتها طوال الوقت!.

لكن أيتها الجدران: أنت سجل حياتي، فليس لك الحق في أن تنكريني أوتنكريها، أنا أعرف أن الناس هنا وفي كل مكان هم الذين يزعمون أنهم يملكونك، لكنهم لا يدركون أنهم أسراك بل سجناء العمر فيك، حتى تسلميهم إلى بطن الأرض، حيث خرجتما جميعا منذ لحظة اختبأتما قديما في عمق الأبدية.

: هل جئت لتتخلص من تفاهاتك القديمة وترهاتك التى ألصقتها بنا؟!.. مالنا ومال تحسسك الأوهام في الوجوه التى تمر بيننا؟!. قد كنا نسمع شكواك فنشاركك أحزانك لأنك كنت تعبث بادعاء الأحزان قبل أن تعي معناها!.

: بربك أخبريني.. لماذا تبدين أنت الآن جامدة هكذا.. غريبة هكذا.. مقيتة قاسية.. لا قلب لك لا روح فيك؟!.

: وماذا عن قلبك أنت وروحك أنت؟!.

هكذا تستطيع الجدران أن تجبرنى عن الصمت، فقد جمدت في داخلى الذكريات أكثر مما اختفت وراء طبقات الطلاء القبيح.

لكن أين ذكرياتى التى كتبتها؟!.. أين أشعار ناجي وشوقي وأبي فراس التى تلوتها بين جدران مكتبة المدرسة الثانوية؟!

: أين أصـــــدء أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب.. وردة وفيروز وعبد الحليم؟!.

" الأولة في الغرام".. " الأطلال".. " أراك عصـــــي الدمع".. "موعود".. "اسمعوني"..."دخلك يا طير الوروار".

وأردد مع فهد عدلي في شـــارع إيهاب في قلب نجع حمادي، غنوة عبد الوهاب مع على محمود طه

: آه لوكنت معي نختال عبره

فما عرفنا ذلك الذي يدعى بالحب، إلا لأننا عشقنا مثل هذه الأغاني!.

تحت هذا الجدار وبين تلك الحوائط وأمام هذا الســـور وداخل هذا المبنى.. فأنت وعاء الحقيقة في حياتى، فلا تجحدينى هكذا!.

: .....!

: ماذا دهاك؟!.. ألم يحدثك أحد من قبلى مثلما أحدثك؟!.. بل هم يعيشون في داخلك لكنهم لا يشعرون بك!.

ياللنسيان.. كانت هذه هي الطريق التى تؤدي إلى تلك الشرفة.

هل ضلت الطريق خطواتى كما غابت عن عيني الشرفة؟!.

وهذه الأشجار التى صارت كالغابات كانت طفلات صغيرات لم تشاركنا من ذكرياتنا شـيئا.. وهذه الأضـواء كانت واهية تافهة.. لا نكاد نشـعر بها!.

كل مرة كنت تلقينني، تبادرينى بســـطورك، فما بالك الآن قد محوتى أكثر ما في السطور؟!.

كنت أحلم بك في كل لحظة في السفر إليك.. ولا تفتأ تخايلني أشباحك من بعيد عبر شـــرفة قطار أو ســـيارة أو حتى طائرة.. كنت عند لقائك تعانقك عيناي، فتعانقين روحي.

لكنى لما لم أســمع منها جوابا الآن.. وليتها ظهرى وغادرتها وأنا متوعد حانق عليها!.

أنت كنت وعاء حقيقتي، فإن وجودك أنت نفســـك لا معنى له من غير أن تعودي إلي، فأنا وأنت دون ســـوانا.. لم يزل ناقصـــا حتى يكتمل بالآخر.

صبر جميل.. فانتظرى حتى أعود إليك أيتها الجدران لتعودي إلي!.

١١- كل هذا القبح بعد ميدان الكوربة؟!

لا أذكر متى كانت هذه الليلة على وجه التحديد لكنها ليله قلقة كشـــأن ليالى الحوادث، إذ كنت يومها أســـهر فى نوبة عمل بقســـم الحوادث والقضـــايا فى جريدة الأهرام وجاء النبأ بأن حريقاً هائلاً قد اندلع فى مبنى الحرية سنتر فى مصر الجديدة وبالطبع هرعت إلى هناك.

وكان كشـــأن المعلومات الأولى فى الحوادث التى تبدو كبيرة، يتحدثون عن قتلى ومصـابين بالمئات والعشـرات.. ودائماً هناك اتهام للصـحافة مسبقا، إما بالتهوين أو التهويل.. ولكن كان المشـهد في الحقيقة مرعباً، بســـبب كثافة الدخان والانفجارات الناتجة عن اندلاع النيران فى مخزن الفريون للتكييف المركزي.

ولأن المكان كان مزدحماً بســبب أنه مســاء يوم الخميس "ليلة الجمعة" فقد أصـــيب عدد كبير بالاختناق وحدثت حالات كســـور نتيجة التدافع ولكن لم تحدث حالات وفاة.

وهذا ما تأكد فى صباح اليوم التالى فى التحقيقات.

ولكن ما سبب كل هذا الفزع وحالات الاختناق التى وقعت؟!.

قال لى المهندس حســـن الدويرى: إن المبنى لو كان به نوافذ مفتوحة كتلك التى فى بيوتنا لما وقع ماوقع أو على الأقل لما كان كل هذا الفزع!.

: كيف؟!.

– ما حدث هو أن كابلا كهربائيا قد احترق نتيجة ماس فى الســـلالم الكهربائية ولم يحدث ســـوى دخان كثيف ولم يظهر منه لهب يؤدى إلى احتراق أى شئ، فلا آثار لحرائق سوى ماكان فى خازنات الفريون التى تغذى أجهزة التكييف فى أعلى المبنى.

"والمبنى علبه من الأسمنت والزجاج"

ولا منفذ للعالم الخارجى ســـوى من باب المدخل الرئيســـى الذى يفتح أتوماتيكيا عند الدخول فى علبه الزجاج هذه.

وحدث ماحدث.. ولولا قيام العاملين بتحطيم بعض نوافذ الغلاف الزجاجى للمبنى، لمات كل من كان فيه خنقاً.!

والمهندس حســـن الدويرى لم أكن أعرفه قبل هذا الحادث.. فقد كان واحدًا من بين الواقفين حول المبنى وظننت أنه واحد من بين الأهالى.. ولكن عرفت من خلال حديثى معه أنه عضـــو فى لجنة معاينة المبنى مكلفة من المحافظة، لوضع تقرير عن حالة المبنى بعد الحريق.

وكالعادة.. تردد فى البداية فى الحديث معى لأنه كان من نوعية معتادة لدىّ، تتوجس من الصحفيين.. ولكن كلمة قلتها على سبيل السخرية عن المبنى جعلت الدويري يهتم بأن يجرى بيننا حوار؟.

فقد قلت: لو فصل تكييف المبنى المركزى من تلقاء نفسه أو لسبب ما، لحدث الاختناق دون حاجة إلى حريق!.

ولكن ما دار فيما بعد بينى وبين المهندس حسن، لم يكتب له من النشر إلا القليل مما يتعلق بالتحقيقات، ذلك لأن أحدا لن يهتم بما قاله لا ناشر ولا منشور له!.

وهذا ما أذكره من حوارى معه ونحن نتجول فى شوارع روكسى والكوربة وحتى ميدان سفير:

" انظر ياسيدى إلى العمارات يميناً ويساراً.. ما كل هذا القبح؟!.. كيف يمكن أن تتجاور مع هذه التشوهات، عمارات فيها كل ذلك الجمال من الفترة المبكرة فى حياه مصر الجديدة بعد تأسيسها على يد البارون إمبان؟!.. ذلك البلجيكى المولع بالشرق وسحر الشرق.. كانت بناياته آيات من الجمال.. إنك يمكن أن تعرف تاريخ بناء العمارة من كمية القبح الذى يبدو عليها!".

:عذراً ياسيدى كيف وأين هذا القبح؟!

فأجاب بحسـرة: طبعا أنت مواليد أواخر السـتينات أو أوائل السـبعينات على الأكثر، فلم تتعلم ما هو الجمال حتى يمكن أن تدرك ما القبح!.

الجملة التى يقولها الدويرى تؤكد أننى أمام واحد من العبقيرات المبثوثة فى المجتمع المصـرى ولكن لايريد أحد ان يهتم بهم وربما لايريدون هم أنفسهم أن بهتم بهم أحد!.

وعلمتني التجربة أنه ليس أكثر جدوى أمام مثل هؤلاء، سـوى أن أدعى الجهل أو أظهره؛ حتى يتكلم أكثر ويجد متعة في الاسـترسـال.. وقد كان.

فاسـترسـل قائلاً: البارون إمبان رجل اهتم بالجمال حتى سـحرة الجمال ول اتسـتغرب ما روى عنه اتصـاله بعالم الجن والأرواح ومايحكى عن سـيطرة الأشـباح فى قصـره البديع فى شـارع العروبة.. فالجمال سـر.. ولكن هذا السـر سـوف يتحول إلى لعنة لو أردت أن تعرف مكنونه.. ومن يعبث بالأسرار فى الخفاء ؛ تعبث به الأسرار فى العلن.

ولك أن تصـدق بكل شـئ بما يقال عن إمبان أو كذّبه إن شئت.. ولكن الجمال قيمه مخلوقة للتعلق بها لا للبحث عن سرها.

فالسـر وراء كل شـئ لن يدركه من لايسـتطيع مقاومة جاذبية الأرض ويبتل بمـاء المطر وتفزعـة الزلازل والبراكين والرعد والبرق.. وكل من تحدث بالأسرار هلك!.

فلم أملك إلا أن أقول له:يا سـيدى كأنك تحدثنى عن الحلاج وليس عن البارون إمبان!.

ولكنه بهتنى عندما قال لي: أعرف من البداية أنك تدعي الجهل!.

ولكنه أكمل دون أن يهتم بتعبيرات المباغتة على وجهي فقال: كلاهما أردا اقتحام عوالم الأسـرار، فكان لهما ومنهما ماكان.. وشـئ جميل أن بدأت تفهم العلاقة التى يمكن أن تكون بين البارون البلجيكى والحلاج الشرقي.

فقلت في نفسي: زدنى يامولاى المهندس.

ولكنه بدا يتحدث كأنه يسمعنى وشرد فى تأمل عمارة فى تقاطع شارعين وراح يشـير إلى الفراندات والأعمدة وقباب صـغيرة على المبنى وبرج صـغير يشـبه المئذنه وجال ببصـره طويلاً ثم أشـار إلى عمارة تحت التشـطيب وانتفض وهو يقول: انظر إلى هذا القبح الجديد.. أنا لا أتحدث عن الهياكل الخرسانية.. فيمكن أن تجعل منها شيئاً جميلاً وإن كنت أجد فى ذلك صـعوبة كبيرة، لكن المهندس الشـاطر هو من يحول القبيح إلى جميل ولكن نحن اكتفينا بالتقليد فقط، فاختفى الجمال لأنه ضد التقليد الذي لا يعي.

فهذه مبان بلا روح لأن مهندسيها صـمموها ونفذوها بلا حب.. آه تذكر جيداً أن العلاقة بيننا وبين الجمال لن تكون سـوى الحب ويمكن أن

يكون المهندس بارعا ومتفوقا ومرضــيا عنه من أســتاتذته وقياداته لأنه منفذ جيد أو ممتاز ومع ذلك، فلن يكون فى نظرى أكثرمن حمار يحمل أسفاراً يمكن أن يفهم ويستوعب بل وربما يبتكر ولكنه لن يخرج تصميمًا جميلاً، إلا فى عيون الأغبياء والأغبياء هم ســـكان وملاك ومنفذو كل هذا القبح لقد ضحوا بالجمال من أجل الاستفاده بكل مليمتر فى المبانى القبيحة على شكل مربع أو مستطيل أو مسدس أو مثمن أو أى من هذه الأشــكال العمودية الصــلدة الحادة وكل مليمتر يمكن البناء عليه وكل مسافة رأسية لابد من الاستفاده بها، لذلك ضاقت الشقق على اتساعها!.

ثم انظر إلى الأبراج.. فإنك عند الدخول يمكن أن تطاطيء رأســك إذا كنت طويلاً حينئذ ستجد نفسك منحنيا رغم أنفك للقبح.

أما فى المبانى الجميلة، فإنك ترفع رأســـك عالياً لأن الجمال قيمته فى العلو.

فقلت وأنا أشـــعر برهبة عجيبة لا مبرر لها: رفقاً بى يا باش مهندس، فأنا صحفى ولست فيلسوفا ثم إن القراء لن يهمهم كل هذا.

فقال في هدوء: هل تظن أننى يمكن أن أكون بهذا الغباء حتى أتحدث بمثل هذا الكلام لكى ينشـــر في جريدة يومية يا صـــحفى.. هذا الكلام أشــعر فقط أنك يمكن أن تفهمه لأنك رغم محاولتك التظاهر بالغباء فى فهم كلامي، إلا أنك تردينى أن أشـــرح لك أكثر ومادمت تريد الحديث

عن جمال العمارة، فلابد أن تسمعنى وتستوعب وتحس ما أقوله لكى تفهمه!.

وضعت يدى على فمى بطريقة أضحكته وأزالت تقطيبة جبينه التى لم تفارقة منذ تحدثت معه، فأنطلق يكمل حديثه: ليس فى القاهرة فقط، بل فى كثير من المدن الأوربيه والأمريكية والصين.. إنه تسلل إلى الأفريقية والآسيوية وهذا هو الغزو الحقيقى.. الغزو الذى قتل الجمال، فالغرب دائماً يريد تدمير الشرق لأنه على عكس ما هو سائد، دائماً ما يشعر أنه دونه فى الفهم والإحساس، فالغرب يرى الجمال سحرا والسمو دجلا والعشق فجورا وهو دائما يقع أسير السحر والدجل والفجور فقط دون الجمال والسمو والعشق.

وقليل هم الذين يدركون القيم الحقيقية لكل من الجمال والسمو والعشق وغيرهذا القبيل يرفضون ما لا يفيدهم، بل ويفيدهم فوراً.. إنها النظرة البرجماتية التى تحول كل شئ إلى سلعة يستفاد بها فيتحول الجمال إلى إبهار والسمو إلى استعلاء والفسق إلى إباحية!.

أنت إذا عشقت امرأة؛ تشعر بالنشوى فى نظرة عينيها، أما الغربى الخنزير، فإنه يفعل بها وفيها كل شئ ثم لا يشبع غريزته وينتقل من شذوذ إلى شذوذ حتى ينتهى إلى الجنون أو الدمار.

فقلت له بعد كل هذا الاســـتطراد منبها: ياباش مهندس نحن خرجنا من الموضوع.

فأجاب بحزم: اسكت.. فكل شئ موصل إلى الآخر وكل الأشياء تتلاقى فى البداية والنهاية أنها تدور وتعود ببدايه جديدة.. الكيمياء والهندســـة والاقتصاد والجغرافيا والاجتماع والتاريخ.. كلها تتلاقى بداية ونهاية.

فقلت وأنا أســـتصـــعب الفهم بلا ادعاء متســـائلا: ما صـــلة كل ذلك بالبناء؟!.

فأجاب وهو لم يتخل عن هدوءه: البناء هو نهاية نشـــاط الإنســـان ولن يقول إنســـان لمن يأتى بعده كيف أنه ســـبقة إلى الوجود إلا بالبناء.. وأقول لـك إن العمـارة التى تقف صـــلـده عملاقـة محـددة كمتوازى مستطيلات عملاق أو مكعب هائل تقول في رسالة للأجيال اللاحقة إن الذى بناها يتاجر بكل شـئ فى الأرض والسماء ولايهمه سوى المكسب ويبيسـتعيض عن الفراغات التى كانت يمكن أن تعطى الجمال، بيروزات أكثر قبحاً أو ستار زجاجى حتى يبهر أو يكثر النوافذ والشرفات بشكل يجعلك تشعر بالدوار.. وهناك فرق يا صحفى ما بين دوار يصيبك بعد قراءة قصيدة لابن الفارض ودوار بسبب كأس ويسكى.

فقلت ضاحكا: ومع ذلك كان بن الفارض يشبه النشوة الصوفية بالخمر.

فأجاب بشبح ابتسامه ولمعة سخرية بريئة في عينيه: إنه يقرب المثل للأغبياء فقط.

. شكرا!.

_ العفو.. ولكن الأشكال المربعة والتقاطعات العمودية، ليست هي سر القبح، فقد كنت أكره أى زاوية قائمة أو خطوط مستقيمة حتى درست عالم النحل فوجدت خلاياه آيات فى الجمال.. إذن فالجمال ليس شكلاً، بل هو روح وقصد وغاية.. أما البنايات الحديثة، فهى قمه القبح وليس لأنها حادة، بل لأن روح مهندسيها كانت أرواحا ملوثه بالبرجماتية المقيتة.

واعتدل وهو يعلى نبرته وكأنه سيلقي بمفاجأة: هل تعرف أن الأكثر قبحا في المدن الذى زرتها هي مدينه نيويورك؟!.. فلم أجد فيها سوى مجتمعات من اللصوص ولكنهم لصوص على قواعد قانونية يعملون فى منظومات تجارية فى غاية من الحدة والقسوة، لذلك كانت بناياتها مثل ساكنيها!.

إنى لم أر رجل أعمال واحدا أو موظفا فى نيويورك، إلا فى صورة قبيحة، بل المؤدبين منهم كانت أخلاقهم ليست سوي نوع من الابتزاز.. تماماً كالنصاب عندنا فى مصر عندما يلقى فى روعك أنه رجل مؤمن ويصدر لك زبيبة الصلاة حتى يستولى على كل ما معك.

وقال في حزن: على ذكر ذلك، انظر إلى المســـاجد الجديدة تجدها تحمل فى قبابها ومآذنها وأشــكالها نفس القبح الذى تراه في لحى ووجوه كثير من مرتاديها الذين يقابلونك دائماً بما يبعدك عنها.. وحتى الكنائس تخلت عن روح البساطة وقفزت فى الجو كقلاع خرسانية لورآها المسيح لفر منها.. عجباً كيف تكون مبان للعباده بلا روح، لكن أقول لك إن المبانى الجميله تترك فرغات حولها فتتداخل مع المكان وتتآخى معه بل تعطيه ســـماتهاعندما يبدو كظل معكوس.. أما المباني القبيحة فهى تمتاز بالأنانية المفرطة.. فانظر إلى برج فى المهندسين ومنزل فى حى عشوائى؛ ستجد أن برج المهندسين مستفيد من كل شئ ولايترك فراغاً إلا مرغماً فى المناور أو السلالم او الأسانسيرات حتى أوانى الزرع تبدو قبيحة وبلا معنى وزرعها لا روح فيه، فقط للمنظرة.. وكذلك المنزل العشوائى تجده قبيحا لايريد بانيه أن يظهر شيئاً جميلاً للشارع فيظهر الطوب الأحمر وســط أعمدة الخرســانة وانظر إلى المدخل الخارجي، تجدهم يمدون سلم يعتدى بدرجة أو درجتين إلى الطريق معتدياً، ثم تجد الأخلاق نفســـها في كلا الحيين على ما بينهما من تناقض ظاهرولكن مع اختلاف بسيط فى طرق التعبير عنها من الجبين المقطب بلا معنى والكراهية المنتشرة وغير المبررة فى المبانى والناس معاً!.

وأشار المهندس حسن إلى شارع عثمان بن عفان فى منطقة صلاح الدين وقال بحزن مخلوط بالســـخرية: يمكنك أن تعرف تاريخ كل مبنى بمدى صلته بالقبح والجمال، فالمبنى الأكثر جمالاً هو مايوغل فى القدم

أكثر، وستجده مبنى كريما؛ يترك للشارع جزءًا من مساحتة عن طيب خاطر ولا يصدم عينك بلوح زجاج أو كتلة خرسانية وهو كريم مع ساكنية أيضا، فيعطيهم هواءً أكثر نقاءً تحت سقف أكثر ارتفاعاً وأما البلكونة فهي هدية من المبنى للعائلة السعيدة.

وعاد يقول بنبرة حزن حقيقية: لكن هيهات للقبح أن يتركهم ينعمون، هل تصدق أنى أكاد أقاوم في نفسى رغبة بأن أنزع أجهزة التكييف القبيحة من البلكونات؟!.

وكاد يهتف وهو يقول: يا ناس هذه المبانى ليست فى حاجة إلى تكييفات، فالقباب المنتشرة فوقها تعمل على تدوير الهواء وتبريده مع المناور والمنافذ وهذه هى البيئه الصحيحة للجسم فترى السكان أصحابها فى حالة نشاط حقيقى لأن أجسامهم متكيفة مع الطبيعة لا مع التكييفات.. ثم إنك لا تدرى كم السموم التى يخرجها الحر من جسمك عن طريق العرق، أما التكييف فيحوله إلى زنخ تحت الملابس.. والنفوس كذلك ستصاب بالزنخ حتماً، فلا مجال للحرية ولا الحركة مع أنهم يا أخى أكثر من يتحدثون عن الحرية.. والحرية نفسها يا صديقى صارت سلعة للبيع والشراء وباسمها يستعبدون الناس هناك.

صدقنى، المجتمعات البرجماتى لا تؤمن بالحرية ولا بالجمال إلا بقدر ما تجنيه من مكاسب ورائهما.. وهذا فى حد ذاته كفر بالحرية وبالجمال ولن تجد سوى غرورا وتعاليا وشذوذا.. إنهم فى سلوكياتهم الشاذه

يبحثون عن الحرية مع أنها قريبة ولســـت فى حاجة إلى كل هذا العناء لتكون حرا، صدقني في قلب السجن يمكن أن تكون حرا لو أردت، فقط ارسـم على الجدران وردة أو وجه طفل أو تغنى أغنيه أو تكتب قصـيده أو قصـــــة.. فالحرية فى الروح، أما هنا أوهناك، فهم مجتمع لا يعرف الروح ولا يريد أن يعرفها لأن الروح تحوم فى مجال والمجال قتلته حدود البنايات فلم تترك لها شيئا!.

وقال المهندس وكأنه يقرأ من كتاب: المبنى الجميل هو الذى يشـــارك الكون حوله بإحداث فراغات تيتح للمكان أن ينسجم فيه ومعه، فلا يبدو غريباً.. والمبنى الجميل يتيح حرية للنظر والهواء والشـــمس.. لا يعرف الكبت ولا يثقل على الصدر.

وأضـاف: وليس هذا فى العمائر فقط، بل فى أشـكال منتجاتهم.. فانظر إلى أشـكال الأجهزة الكهربائية والمنزلية والكومبيوتر والهواتف والسيارات والأتوبيســـات والطائرات.. طبعاً والصـــواريخ والقنابل والأثاثات.. كلها حـادة محتـدة.. أمـا الجمـال فلا يعرف حـدوداً لأنـه ينطلق بحريـة فى الفراغات.

ثم صمت المهندس حسن وانحنى بي إلى مقهى فى شارع جانبى وجلس على كرسـى ومد سـاقيه كأنما ينفض عنهما التعب.. ولاحظت لأول مرة أنه ينتعل فى قدميه صـندلا أنيقا من الجلد الطبيعى، فابتسـمت.. وكان

لمثله أن يدرك لماذا أبتسم.. فأشار إلى صندله الأنيق قائلاً بسخرية: إذا أردنا أن نكون أحراراً، فلنبدأ من القاعدة!.

١٢ـ حركة وضاعة

صدرت حركة تنقلات استثنائية قبل موعدها بنقل أربعة من ذوي الرتب الكبيرة من ضباط الشرطة خارج مواقعهم وكان ثلاثة من هؤلاء سعداء جداً بنقلهم هذا، أما الرابع فكان أتعس رجل فى الوزارة، فبعد ما يزيد عن ٢٥ عاماً، ترك اللواء أحمد السيد على عامر وضاعة، موقعة فى الموقع الحساس القريب من دوائر صنع القرار ونقل إلى شرطة مكافحة التهرب الضريبى.

وكان قرار نقلة بالطبع، على غير رغبتة ولكن ليس أمامه سوى أن ينفذ، خاصة وأن الموقع الذى نقل إليه كان بناءً على اختياره ولكن الاختيار كان نوعاً من التكريم لضابط ترك مكانا تهفو إليه أحلام الضباط.

وقرار النقل كان عقاباً خفيفاً ولكنه مفاجئاً، إذ لم يتوقع اللواء أحمد وضاعة أن تنفيذه تعليمات قائده بإجراء تحريات حول قطعة أرض اشتراها أحد بن أحد الوزراء ولم يكتب كلمة واحدة في تلك االتحريات التى أثبتها في التقرير المقدم إلى مكتب الوزير، إلا بناء على إقرار قائده وتوجيهات الوزير نفسه بأن يكون التقرير موافقاً على الحقيقة التى تحراها وضاعة بنفسه لحساسية الموقف.

وكم من معلومات وتقارير قدمها إلى قيادات الوزارة طوال مده خدمته، كانت أكثر خطورة وكان يستشعر فى كل مرة حدوث مفاجأة سارة أو غير سارة ولكن لم يدر بخلده أن ينتهي الأمر إلى النقل وإن كان النقل إلى الإدارة العامة لمكافحة التهرب الضريبى وهى إدارة الكعب العالى فى الوزارة لكن موقفة السابق كان يجعله فوق كل كعب عال.

وكان مجرد ذكر اسمه فى أى جهه تابعة للوزارة، يزلزل أركانها رهبة ورغبة وها هو انقطع الأمل أو على الأقل قد خفت فى الوصول إلى ما سبق أن كان يزيحه عن أحلامه كثيراً حتى لا يشعر بطول الطريق وعجز الوسيلة.

على أى حال، لن يشعر أحد خارج الوزارة بأن النقل كان عقاباً خفيفاً جاء لسبب لا حيلة له فيه، وهو تصفية حسابات من الكبار وتراجع فورى عن هجوم كاسح كان مزمعاً على الوزير والد الشاب صاحب الصفقة المشئومة.

حسابات وتنازلات ومناورات منذ اقترابه من مصادر القرارات الكبرى مدة خمسة وعشرين عاماً.

يكفى ذلك!.

كان لابد عليه أن يكلف الترزى الخاص به بتفصيل بدلة رسمية للتشريفات لم تلمس مثلها جلدة منذ أن كان ملازماً صغيراً ولكن عليه

أن يقوم بإجازة قصيرة قبل استلام العمل يتسنى له فيها التقاط أنفاسه وإعاده ترتيب الأوراق وهروب من نظرات التساؤل والشماتة من أقرانه ومن فوقهم وعكس ذلك ممن تحتهم مثل بعض السذج من الأقارب والأصدقاء الذين سيرونها ترقية وتكريماً حقيقياً.

كما أن الموقع الجديد موقع قيادى فى إدارة لامعة.. وهو إن كان تم نقله مساعدا للمدير، إلا أن المدير رجل محترم وتربطة به صداقة وطيدة وسوف تتيح العلاقات جواً مناسباً للعمل وتعاونا سوف ينتج الكثير.

وعموماً كان قد تقابل مع المدير الذى لم يتأثر تقديره له بحركة النقل المفاجئة، حقاً كان كثيراً ما يصدر إليه تعليمات وأوامر وهو فى موقعة القديم ولكنه لم يكن صلبا ولا متعالياً ومؤكد أنه سوف يحفظ له ذلك.

وكان على يقين أنه سيجد أجواءً مريحة فى الموقع الجديد ولكنه بالفعل الآن يحتاج إلى راحة أكثر فى منتجع الساحل الشمالى المملوك لصديق عمره رجل الأعمال المرموق سمير التابعى.

وسمير لن يبدى حزناً ولا فرحاً للنقلة الجديدة، حتى يرى أثر ذلك على وجهه.. ولقد كان أول صديق ممن هم في دائرة الأصدقاء خارج الشرطة، سارع بالاتصال به فور معرفة الخبر وبدأ مهنئاً أكثر من معزياً وهو عموماً يبدو ككاتم أسراره، فلم يعلم أحد مطلقا أنه شريك

بنصيب فى بعض من مشروعاته العقارية المنتشرة فى طول مصر وعرضها.. ثم إن سمير له علاقات متشعبة بصناع القرار وإن كان بعيداً عن لعبة السياسة ويحرص على ذلك وهو كما استفاد منه فى استثمارات أمواله ومدخراته، فهو قد أفاد سمير أكثر وأكثر فى الخدمات الجليلة التى أداها إليه وهى لاتعد ولا تحصى فقد كانت له اليد الطولى في دخول ابنه كلية الشرطة دون بذل مجهود وكان سمير يعرف أن الطريق ليس سهلاً فى ظل التزاحم على الكلية.

ثم إن سمير كان يدخل أى مصلحة حكومية أو قسم شرطة تحت غطاء كثيف من حماية أحمد باشا وضاعة، وفى بعض المصالح التى تستدعى أن يصاحبه بنفسه، لم يكن يتردد في الذهاب معه وهولا يذهب مع أى أحد مهما كانت صلته به.

وكان سمير يرى بعينية كيف ترتج الجدران وينتفض الرجال إجلالاً وترحيباً.. وهو إنسان مخلص وثبت ذلك فى أنه عندما أعرب له عن رغبته فى قضاء الإجازة فى منتجعة الفاخر، فأسرع بالعودة إلى القاهرة من رحلة عمل إلى دبى، تاركاً مصالحة وصفقاته، ليكون بنفسه فى استقبال اللواء وضاعة.

وتم تجهيز شالية أقرب إلى الفيلا مع أوامر مشدده بتلبية أى طلب يطلبه وضاعة ولن يغفر للمقصرين.. وعموماً كان الجميع هناك يعرفون اللواء وضاعة حبيب الباشا صاحب المنتجع.

فأى أحد من طرف وضاعة كان يحضر إلى المنتجع فى أيام مصيف أو غيرها، كان يلاقى من التكريم فوق ما يتصور.

والمنصب الجديد لن يؤثر فى الأمر شيئاً، فهناك مشكلة فى الضرائب المستحقة على نشاط سمير التابعى وتضخم الملف واتخذ مكاناً فى إدارة التهرب الضريبى ولكن تعليمات وضاعة من مكانه السابق، كانت بمثابة أوامر بعدم فتح هذا الملف لينضم إلى ملفات أخرى موقوفة بأوامر أعلى درجة من الدرجة التى يقف عليها وضاعة!.

وسمير التابعى يخاف السلطة أكثر مما يخاف الضرائب وهو يعتبر أن وقف ملفه يؤكد سطوه اتصالاته وعلاقاته ولكن كل هذه الاتصالات والعلاقات بالنسبة لهذا الملف محصورة فى تعليمات وضاعة وربما كان هذا هو السبب الذى جعل سمير التابعى يترك كل شئ ويعود ليكون فى خدمة صديق عمره.

وكما هو متوقع لم يكمل وضاعة إجازته، فمثله لا يستطيع أن يجلس بدون عمل حتى جلساته على البحر مع التابعى والتى راجع فيها أعماله معه، لم يعدها من بين الأعمال، فالعمل لديه هو إصدار أوامر أو تنفيذها أو متابعتها.

وكان المكتب المجهز للاستقبال قد انتهت فيه أعمال التجديد والتى أشرف عليها أيضاً سمير التابعى من دهانات أو إضاءه وأثاث.. حتى

اللوحات وقصـــارى الزرع جاء بها ســـمير التابعى، فلم يتكلف اللواء وضاعة سوى الإشراف على نقل متعلقاته الشخصية.

ولم يشــأ التابعى أن يفتح مع وضــاعة موضــوع الملف المؤجل والذى أصبح تحت يده مباشرة، فمع أنه بحكم موقعه الرجل الثانى فى الإدارة، إلا أن عجلة العمل أثبتت أنه الرجل الأول، فالسيد اللواء مساعد الوزير مدير الإداره يتأهب لمغادرة الإدارة والوزارة كلها لبلوغة ســن التقاعد فى حركة يوليو القادم.

وليس على وضــاعة ســوى بذل أقصــى ما يســتطيع ليكون فى موقع القائد الأول، حقاً تذكر ذلك عند اقتراب الحركة العامة وود لو يقفز إلى أول أغســـطس موعد تنفيذ الحركة العامة للشـــرطة ليعرف ما تخبئه الأوراق.

سيكون هو المدير وهنا ترتاح روحك وجسدك يا وضاعة، فالكل سوف يعتقد – وقد يكون حقيقة – أن نقله فى حركة اســـتثنائية قبل الحركة العامة، كان تمهيداً لوضعة على رأس الإدارة السوبر ستار.

ولن يبقى هناك أدنى أثر لأى اعتقاد بأن الحركة الاســتثنائية، تلك التى ســـميت ســـخرية، بحركة وضـــاعة، كانت عقاباً مخففاً، بل هى تمهيد لاعتلاء الكرسى!.

. أنت دائما مصدر تفاؤلى يا أبو سمرة.

هكذا قال لصـــديقه الذى كان أول مواطن يدخل مكتبه مهنئاً باســـتلامه العمل فى مكتبه الجديد وفي أول أيام عمله فى الإدارة وكانت ســـعادة التابعى لا توصف لأن معنويات الباشا صعدت إلى عنان السماء بعد ما ارتكن إلى اعتقاده الجديد.

ومال إلى أذن التابعى قائلاً: تلقيت وعدا من مســـاعد أول الوزير بأننى سأكون هناك على كرسى المدير.

وكاد يسقط من الضحك عندما قال له سمير: هذا من حظ من سيأتى مكانك، فسوف يتسلم غرفة مكتب كاملة التشطيب كجناح فى فندق ٥ نجوم ولا يهمك يا باشـــا، فالعمال لم يتركوا باب الإدارة بعد، ويمكن أن ينتظروا للعمل من جديد فى تجديد غرفة السيد المدير فور أن يتركها.

وقال وضاعة: سأحاول إقناعه بالحصول على إجازة قبل موعد الحركة حتى يتسنى لنا تجهيز المكتب لاستلامه فى نفس يوم تنفيذها.

وجلس وضـــاعة على مقعد المكتب مســـتســـلماً لأحلامه بالانتقال إلى الغرفة الأخرى في نهاية الممر المواجه، ونظر إلى عدة التليفون على يســـاره وتبســـم متذكراً كيف كان يحادث الجالس مكانه ليصـــدر إليه الأوامر ويبلغه التعليمات ثم ينتظر من السماعة نفسها.

. تمام يا فندم.

ووجد رغبة قوية فى فحص ملف صديقه الوفى، فطلبه على الفور وراح يقلب أوراقه ولم يكن هناك جديد، سوى أنه يطالع ما تحويه بالقراءة من الأوراق مباشرة بدلاً من معرفتها شفوياً من خلال التليفون.

مثل هذ الملف ملفات كثيرة أخرى موضوعة فى الدرك الأسفل من الأرشيف، لحين صدور تعليمات بوضعها على المكتب.

لم يرتكب التابعى فوق ما يفعلة عشرات من رجال الأعمال الآخرين وهو يعمل بعيداً عن الدوائر السياسية والأمنية.. ولكن لا يتردد لحظة فى تقديم ما يطلب منه، فقد كان مستأنساً مطيعا وكان ذلك كافيا لاتقاء العين الحمراء!.

بالأمس القريب فقط، تنازل سمير عن مشروع كبير على ساحل البحر الأحمر لمصلحة شركة خليجية كبرى، دخلت السوق المصرية، كأكبر منافس فى المجال العقارى والتابعى على طيبة قلبه، إلا أنه فى غاية الذكاء، فهو يعرف أن صاحب الشركة أحد شيوخ الخليج الأثرياء وصديق شخصى لرئيس الوزراء، كما أن وزير التعمير في الوزارة كان يعمل مستشاراً لشركاته فى الخليج سنوات طويلة ومازال الشيخ يعتبر أن المكتب الهندسى المملوك للوزير يعمل كأحد توكيلاته فى مصر.. وذات مرة حضر وضاعة افتتاح مشروع كبير للشيخ افتتحه وزير التعمير الذي وقف بجوار الشيخ عندما نسى أنه صار وزيراً وناداه

بصوت مسموع بطريقة الشيوخ الخليجيين قائلاً وبصوت واضح جدا: يا ولد!.

ولكن الموقف تحول إلى موقف كوميدى عندما ضحك الوزير بصوت مرتفع وتابعة الشيخ الذى لاح عليه الإحراج الشديد عندما ناداه: يا ولد.

وبعد كل ذلك، كيف يمكن لمثله أو مثل التابعى أن يقف ضد رغبة الولد الوزير أو أي من الأولاد؟!.

وبعد أن انتهى من الملف، لم يجد جريمة كبرى تصلح للتستر على صديقه، وإن كانت إثارة هذا الموضوع لو تسرب إلى الإعلام، فسوف تكون قضية الموسم، لأن التابعى وإن كان بعيدا عن الأضواء الإعلامية، فإن الأضواء الإعلامية لن تبعتد عنه.

وحتى يسدد سمير الضرائب المستحقة عليه، سوف يكون الموضوع هو الأول على كل الساحات، ثم إن التابعي لا يعرف من قيادات وزارة الدخليه سواه أو من هم عن طريقه فيحمون صديقه المخلص، فلن يرن جرس تليفون فى مكتبه لإصدار تعليمات بتأجيل أو إخفاء أو تسوية موضوع التابعى.

"عفواً يا صديقى لقد كنت أنا مركز القوة الذى ترتكن وتهرع إليه فى مشكلة تحت يد آخر، أما وقد صرت أنا هو ذلك الآخر، فمن هذا الذي سوف يصدر لى الأوامر"!.

سوف تسامحنى يا سمير عندما أقنع الوزير بأنك ترغب بتسديد الضرائب وغلق هذا الملف وتظهر أمام الرأى العام بصورة رجل الأعمال الشريف، سوف تستفيد الدولة وسوف تستفيد أنت وسوف أستفيد أنا، فهذه قضية تصلح لتعزيز موقفى فى أوائل أيام عملى.

"سأضع تقريرا بحجم هذه القضية بعد صدور قرار ارتقائى منصب مساعد الوزير".

"إنها تضحية بك يا صديقى المخلص ولكن ليس للأضحية قيمة، لو لم تكن غالية وأنت غال على جداً يا سمير".

وانتظر وضاعة وهو يدعو من أعماق قلبه تضرعاً وخفية، ألا يجدد الوزير لمدير الإدارة سنة أخرى فقد بلغ السن ويضغط هو الآخر للبقاء لعام قادم.

عموماً حتى لو حدث ذلك، فما زال هناك متسع من الوقت حتى يأتى موعد الحركة.

١٣ـ أول معاد في وسط البلد

موعد بين ثلاثة طلاب في السنة الثانية في كلية الآداب، ليس مهما أن يكون الغرض من الموعد محددا بالضبط.

اختيار المقهى في وسط القاهرة، لم يكن إلا لأن رابعهم يعمل في المقهى وها هو قد أوشك على إنهاء فترته، فجلسنا على مائدة في وسط المقهى وكان الوقت عند بداية الليل.

وموقع المقهى يشغل فراغا هائلا من الفراغات العبقرية التى تمتاز بها مباني وسط القاهرة، وبدا كأننا في مدينة مسقوفة بالجدران الشاهقة، فالممرات بين وتحت العمارات مفعمة بالحياة، ولكن بعيدا عن ضجيج السيارات التى بدت وكأنها في عالم آخر وإن كان على بعد خطوات.

كان يجلس بالقرب منا رجل يبدو من هيئته أنه من أثرياء الصعيد وكان صامتا ينظر إلى شاشة التلفزيون بلا اهتمام حقيقي.. ولاح كأنه سقط فجأة من حقبة مضت ارتسم حزن فراقها على صفحة وجهه.

وانتقل ليشاركه مائدته شاب ضخم يرتدي "ترينينج سوت" كان قد أفرغ ما في جوفه تحت مائدة أخرى وذهب ليفرغ زجاجات جديدة من البيرة في جوفه إفراغا عجيبا وهو يداعب الرجل مناديا باستهزاء واضح: إزيك يا عمدة.. يا عمدة.

لكن العمدة لم يلتفت إليه وظل على حزنه المكظوم.

كان هذه أول احتكاك حقيقي بيني وبين "وسـط البلد" ذلك المجتمع الذي يبدو وكأنه يعلن لك عن كل أسـرا ر القاهرة، إلا أنه فور مبارحتك إياه، ستنسى كل ما أفصحت به لك قاهرتك عن أسرارها وتعود غافلا وأنت حسير!.

فجأة انتفض الشـــاب الضـــخم واتجه إلى الجانب الآخر عند مدخل المقهى الثاني على ممر جانبي وأمسك بفتاة.. وبدأت الواقعة!.

حاولت أن أقوم لاستطلع الأمر فأمسك بي أحمد الجابري: رايح فين؟!.

فقال محمدي شوشة بلا اهتمام وهو ينفث دخان الشيشة: يا عم سيبنا نتفرج.

الفتاة كانت تبكي بحرقة في وسط دائرة من الرجال، بينما الفتى الضخم يمسك بها محاولا احتضانها وهو يسبها بأقذع الألفاظ.

لا أحد يجرؤ على الاشتباك مع الفتى السكير لضخامة جسده، حتى ذلك السـائح الخليجي العجوز الذي كان يلاطف الفتى محاولا إقناعه بأن ما يفعله عيب ولا يجوز ووضـــح على طريقته في الحوار خوف شديد من مشهد الفتى!.

الوحيد الذي كان في حجم الفتى هو مدير المقهى الذي وضـــح من البداية أنه يعرف كلا الطرفين وأفلح في أن يقنع الفتى الضـــخم بترك معصم الفتاة التى كانت تنتحب مستغيثة.

ولكنها لم تجرؤ أن تبتعد خطوة عن الدائرة، خوفا من أن يطاردها.

وجدت الموقف في غاية من العبثية.

. يا ناس عيب.. كيف يحدث هذا مع امرأة في قلب القاهرة.. أليس منكم رجل رشيد؟!.. أو حتى رجل فقط؟!.

كلمات لم أسمعها من أحد من المتحلقين.. كما أني لم أتفوه بأي منها!.

لكن الدم غلى في عروقي واقتربت من الفتاة حتى أحصـــل على الإذن بالتدخل وليحدث ما يحدث.

. عاوز ي.....ني بالعافية!.

ثلاث كلمات خرجن من وجه الفتاة الذي انكمش في مســـكنة طفولية أسكتتنى على الفور.

آه.. مكان الـــ.....، هوصيغة الفعل المباشر بالعامية البذيئة وبالعربية الفصيحة الدالة على تمام فعل الجنس.. وبلا أي مورابة.

أظن أنه لم يسبق لي أن سمعت هذا اللفظ وبهذه الطريقة من فم أنثى قبل هذا الموقف.. وربما لو كتبت القصة في العصر العباسي لما وجدت حرجا في كتابته.

لكن القاهرة بلد لكل العصور!.

قال لي أحمد: لماذا تركت الفتاة وعدت؟!

فلما أخبرته قال محمدي مستهزءًا من تعاطفه معها ونظر إليه مستنكرا: عاوزه يعمل إيه بعد ما سمع منها كده.

بالطبع لم أكمل فعل الشهامة الذى ارتطم بقول الفتاة!.

. مين دي؟!.

. يا عم دي بنت من داعرات وسط البلد.. لكن ألم تلاحظ شيئا؟!.

ـــ آه.. هي ترتدي عباءة سوداء فضفاضة وتصبغ خصلات من شعرها بلون ذهبي باهت ورخيص ورسمت حواجبها باحتراف نامصة متمكنة.. ولكن أظافر قدميها مصبوغة بمانيكير ليس رخيصا.

وأخرج أحدهم لفظا خارجا لا يقل بذاءة عن لفظ الفتاة وهو يضحك: إنت رحت تتفذها ولا تفحصها؟!.

وتعالي صـــوت الفتى الضـــخم وهو يحاول تكرار تعدية عليها: لازم ..... هنا يا بنت الـ.....، وفي الممر وقدام الخلق.

ولما تعالت استغاثة الفتاة، فيما يبدو رق قلب الفتى الضخم فقال: يا إما ..... يا إما آخذ فلوسك.

قال أحدهم: صدقونى لو ضمنت الفتاة أن عاطف "اسم الفتى الضخم السكير" وحده سيفعل هذا، لاستجابت له حتى يتركها، لكن الخوف أن يتحول كل رجل في الشارع إلى عاطف!.

يا للغيرة التى ستضيع مننا فرصة لم ولن يشهد العمر مثلها لو أفلح عاطف وحده في تحقيق ما يرغب فيه!.

ـ يا ناس البنت شقيانة طول النهار.. حرام عليكم.. يعني مش كفاية في شقق وسط البلد؟!.. كمان يبقى في الشارع؟!.

. شارع.. شارع إيه؟!.. نحن في ممر!.

كلمات أيضا، لم يتفوه بها أحد.

وفي النهاية أفلحت مفاوضـــات مدير المقهى في أن ينهى المســـرحية العبثية، بأن تدفع الفتاة خمســـة جنيهات لعاطف وأســـرعت جريا على الأقدام لتترك الممر بعد أن أعطته الجنيهات الخمسة.

قال عم حســـن الجرســـون العجوز: عاطف شـــاب طيب وابن ناس محترمين ومبسوطين وعندهم ورشة كبيرة لتصليح العربيات.

وأردف بحزن: لكن بعدما يسكر يتحول لبلطجي.

وعاد عاطف يحمل شـنطة بلاسـتيك كبيرة مليئة بخبز وجبن ولانشـون وبسطرمة ومخلل وغيره، فقد كانت الخمسة جنيهات في نهاية الثمانينات تحتفظ بقيمة لا بأس بها.

وجلس عاطف والمدير وآخر يأكلون من حصـيلة عرق الفتاة المسـكينة وأشـار إلينا عاطف يدعونا لمشـاركته غنيمة النصـر، فرددنا شـاكرين وغمزني أحمد قائلا: أهو طلع رجل كريم معانا وأنت كنت عاوز تتخانق معاه!.

. لكنها عزومة بلطجي بفلوس عاهر!.

. وماذا كنت تنتظر أن ترى في وسط البلد؟!.

فسألت في سري دون أن أكلف نفسي للآن البحث عن إجابة لسؤالين:

لماذا تبدو بلاد ما جميلة، بينما يغلب على أهلها القبح؟!

وهل ثمة فارق بين البلد وبين أهلهّ؟!.

١٤- عشق عمر

اضـطر لأن يخالف تعليمات البنك وتسـلل من باب خلفى حتى لا يمر على ماكينة تسـجيل الخروج، فطوال سـاعات العمل غير مسـموح باسـتقبال ضـيوف في المكاتب الداخلية.. لكن هناك باب ناحية البوفيه يمكن من خلاله النزول إلى الشـارع والدخول من باب البنك الرئيسـي إلى صالة استقبال العملاء.

كما أن مكتبـه في الدور التاسـع ولن يلحظ أحد أنـه مع "عميلـة" في الصـالة، لكن في الحقيقة هي ليسـت عميلة، إنها سـالي تلك هي حبيبة القلب الحقيقية التى دفعته لأن يتخذ خطوة جدية لأول مرة مع نفسـه بأن يتقدم لخطبتها وراح يرتب لطرح الموضوع على الأسرة.

ولماذا لا؟.

فهو الآن موظف في بنك استثماري كبير لا يجرؤ كثيرون من خريجي كلية التجارة مثله، أن يحلموا بها، كما وفرت سـنوات الغربة التى عمل فيها والده في الخليج عليه مشـاوير الشـقة التجهيز.كل شـيء سـهل في حياتك يا سيادة المحاسب عمر، أما سالي فهى صديقة شيرويت حبيبة صـديقه باسـم عدنان وباسـم عدنان هذا كان فتحا في حياته منذ أن

تزاملا في البنك واكتشـــفا أنهما يســـكنان نفس الكمباوند في التجمع الخامس.

باســـم عدنان فتح أبوابا جديدة في حياة عمر، فأول مرة يعرف عمر صـديقا حقيقيا، فهو الذي عاش حياة شـبه مغلقة في مدينة في صـحراء الخليج قاصـــرة على العاملين في المشـــروع الذي كان يعمل فيه أبوه وحتى عندما عاد إلى مصر، كان أبواه قد اعتادا على المعيشة المغلقة، ففي شـقة الأسـرة القديمة في مصـر الجديدة، كانت سـنوات الاغتراب قد قطعت معظم الذكريات واسـتوطنت شـقق العمارة مخلوقات لا تبتسـم ولا تكشر في وجهك.. وجوه جامدة ليس بها أثر لا لحب ولا لكراهية.

أبواب الشـقق مغلقة ليل نهار لا تعرف هل هي مسـكونة أم خاوية على أثاثها، كذلك الحال في الكمباوند، لكن عمر لم يشـــعر بذلك ولا انتبه إليه إلا بعد معرفة باســم عدنان، فرأى للمرة الأولى أيضـــا، في القاهرة أناســا غير أقاربهم وأصـدقاء أبيه القدامى، يمكن أن تكون بينهم مودة.. كان ذلك في أسـرة عدنان الذي عرف معه أن هناك ما يسـمى بالفسـح والترفيه، كما لم يكن عدنان بالصـديق السـوء، فهو إنســان عملي جدا ولكنـه يعرف كيف يســـتمتع بـأوقات فراغـه وهو يعرف عددا كبيرا من البنات اللائي يبدو أنهن يطاردنه، لكن عدنان صـــارحه بأنه زهق من كثرة العلاقات الغرامية وهيافاتها وقرر الارتباط بشـيرويت صـديقة سـالي

التى اتفق عدنان وشـيرويت على أن يقربا بينها وبين عمر، عســى أن يتحول مربع العشاق إلى مربع للأزواج.

ويوم الخميس قبل الماضـي، سـافر أربعتهم لقضـاء "الويك إند" إلى شرم الشـيخ والنزول في فندق واحد، كان هو مع عدنان في غرفه وشـيرويت مع ســالي في غرفة أخرى.وكلتا الفتاتين أخبرت أســرتها بتلك الرحلة.. كيف؟!.. لا يهم.. يمكن تعليل ذلك بالســفر بصــحبة رحلة ترفيهية نظمتها الشـركة التى تعمل بها شـيرويت التى لا تكاد تخطو خطوة هي أو ســالي إلا بمكالمة مع "مامي" فمامتاهما تعرفان كل شــيء أما عن "بابتيهما" فلا يهتمان كثيرا مادامت مامي عارفه!.

إذن فلماذا كانت كذبة الرحلة؟!.

أحيانا لا يصلح سوى الكذب لإضفاء قليل من الاحترام!.. وعموما باسم عدنان متربي ورجل جنتل ولن يغدر.. ثقة غريبة تتمتع بها هذه النوعية من النـاس.. ففيمـا يبـدو أن الثراء يكفـل للأثريـاء مرتبـة للثقـة من نوع عجيب.

يحدث عمر نفســه بذلك وهو منفرد في شــرفة الغرفة يتأمل أجســاد السـائحين والسـائحات شـبه العراه على حمام السـباحة.وكان لابد خلال يومي الأجـازة من أن يقترب من ســالي التى تبـدو أكثر جمـالا من شيرويت، ورأى لأول مرة جسد امرأة يعرفها، يقتسمه مايوه من قطعتين،

بل وســبحا معا ولعبا في مياه "البيســين" لكنه لم يجرؤ على أن يقبلها مثلما يفعل عدنان وشيرويت علنا.

لكن تبادل قبلات الســـلام على الوجنات عند توصـــيلهما بعد العودة للقاهرة، أزاحت تلال الخجل.. ومن خلال اتصـال مباشـر على "الواتس آب" تصـارحا برغبة الاقتراب أكثر وفي منتصـف المكالمة كان إعلان الحب وفي النهاية وعد بلقاء في اليوم التالي منفردين أو مع ضـــلعي المربع الباقيين.. ليلتها كره النوم الذى كان يطارد أحاسيس الحب النابتة بين ضلعيه وعرف قيمة السهر الذي يروى هذه النبتة الغضة!.

وعلى مدي الأيام التالية كان اللقاء يوميا والمكالمات ساعتيا!.

أمس الأول قضـــوا جميعا يوما جميلا في منتجع على أطراف القاهرة، لكنها في اليوم التالي أغلقت هاتفها وتركت له رســالة "واتســآبيه" بأنها مريضــة وســتخلد إلى الراحة ولا تقلق إذا ما وجدت الموبايل مغلقا.ولأول مرة يشكو الغربة ويعتصره القلق فيكره السهر ويعرف قيمة النوم وكيانه يتمزق خوفا عليها مما أثار سخرية عدنان وتعاطف شيرويت.

والآن جاءته مكالمتها بأنها تنتظره أســـفل مبنى البنك "كيد من خلال الموج مدت لغريق" فتســـلل من باب البوفيه ليلقاها ويرتوى من عينيها بـــ"بريق يظمأ الساري له" لكن وجهها شاحب كما كان عندما تركها بعد رحلة المنتجع، كان هناك شيء ما يشغلها.

هل يمكن أن تتراجع عن قرار الحب والارتباط بســـبب أنه يحتاج إلى "آبديت" كما تقول شـــيرويت ســـاخرة؟، فهو يحمر خجلا عندما يرى عدنان يقبل شـــيرويت ويرتعد عندما يصـــافح ســـالي بالقبلات ولا يكاد يتابع الموضـــات في أي شـــيء ســـوى الملابس، بل لا يســـمع الأغاني الجديدة.

: وماذا يعنى؟!.. هل من الممكن أن تتوقف حياة ويموت حب بســـبب هذه التفاهات؟!

ــ يا عم عمر هناك ملايين لا يعرفون من الحياة وعن الحياة سوى أنها تراكم لهذه التفاهات.

. والحب؟!.

ـ الحب يعيش الآن بقوة دفع خارجية بعد أن صار كل شيء يحتاج إلى شاحن للتجديد.

لكن الموضـــوع ليس تافها.. فقد أخبرته أنه ســـتنتظر حتى ينتهى من عمله في موعد الانصـــراف، عموما لم يبق على الموعد إلا أقل من ساعة.

الأمر لا يبدو مهما فقط.. بل خطيرا ويمكن أن يكون مصـــيريا.. هل ستكشف له عن سر، فالمشكلة إذن هينة، فهو على استعداد لغفران أي ذنوب وتجاوز أي عقبات.

. "أنا بحبك يا سالي.. بحبك.. فاهمة يعنى إيه بحبك".

. "يا عم الحج اصبر لما نشوف".

وعلي أي حال هي تنتظر في الكافيه على ناصية الشارع الذي يقع فيه مبنى البنك ولم يطل الوقت حتى بدأت في الحديث وهي تهرب بعينيها من ملاقاة عينيه.

: اسمعنى يا عمر أنا مضطرة أخبرك أنى اكتشفت أننى متعلقة بشخص آخر ولن أستطيع الارتباط بك طالما هو في حياتى وفشلت في التخلص من حبه إنى أتصـــوره في كل مكان ويكاد يعيش معي يومي كله.. في البداية كان كالفكرة الخبيثة التى تتعلق بالذهن بلزوجة مميتة، لكننى ضعفت واعترفت واستسلمت لمصيري ولن أظلمك وأخدعك.. سامحني يا عمر.

وكان هذا آخر ما ســـمعه منها قبل أن تتركه في الكافيه.. الأمر لن يصلح معه سوى عدنان فطلب منه الانتظار في الكافيه وحضر ومعه شيرويت في مفاجأة أصابته بالضيق لأنه لا يريد أن يعرف بمأساته غير صديقه هذا الذي استقبل قصته بسخرية أصابته بالصدمة.. فهدا

من روعه وجلسوا جميعا ثم رفع عدنان هاتفه المحمول بيد، بينما طوق بذراعه خصر شيرويت التى ألقت بنفسها عليه كعادتها وكأنها تستعد لقبلة جديدة.. وجاء صوت سالي على موبايل باسم جادا حادا بينما شيرويت تسمع بابتسامة المتوقعة لما ستقوله

: اسمع يا باسم أنا قلت لعمر إنى مرتبطة بشخص آخر.. لكن لم أقل له أن الشخص الآخر هو أنت.. فهذه مهمتك أما شيرويت فانتهت بالنسبة لي كصديقة والليلة سأقطع علاقتى معها وهذا سهل جدا.. المهم إنى كلمت "مامي" ومامي منتظرة إنك تكلمها.. باي.

١٥- نصف خيانة في الجريون

. وحياة أمك الغالية أنا عارف نهايتك يا عاطف!.

طبعا يا إما مجنون أو منتحر على يدها!.

. ومن هو عاطف هذا؟!.

. صديق عمري وزميل الثانوي والحقوق القديم.

. ماله؟!.

أنا أعرفه جيدا.. الواد عمره ما كان له دعوة بالإبداع لا في الشـــعر ولا في الأدب أساسا.. ولا فلق الدماغ برغي وحرق دم ولدلدة فارغة!.

لكن جيهان عزيزي غيرت مجرى حياته وجعلته زبونا دائما على أرصفة الكتب القديمة، ولكن عاطف كان يكتفي بتقليب الكتب على مضـــض ومطالعة فهارســـها وحفظ مؤلفيها، فأنا أعرفه تماما.. لأنه لا طاقة له على الجلوس للقراءة، إلا للدح والمذاكرة للامتحانات.

لكنه حتى يفوز بثقة جيهان، لا بد أن يكون مبدعا لا مجرد مثقف!.

. يا سلام تاهت ولقيناها!

إن كان على الثقافة فممكن يا عم عاطف تضـــرب أي أســـامي لكتب وشـــعراء وفلاســـفة، من أولئك الذين تحمل أســـماءهم أغلفة وصـــفحات كتبك المتربة التى تتبعثر في أركان غرفتك بلا جدوى!.

ماركس.. سارتر.. كازانتاكس.. تشيكوف.. أي هتش والسلام!.

وأنـا وحيـاة من جمعنـا من غير معـاد، على ثقـة من إن الواحـد من الجماعة المبدعين الحقيقين لا يخلو من اللســـعان، فما بالك بالمبدعين المدعين مثل عاطف الكيكي؟!.

لكن من قال إن الكيكي مبدع أو مدع؟!.. هو فقط عاشـــق ولهان ولها مولعا وليعا، فســـبحان من جمعه مع جيهان، فما كان منها ومنه إلا أن وجدناه شـــارخا في الوســـط الثقافي ولا كأن الحكاية كانت جد الجد يا ولداه!.

كل هذا من أجل هذه؟!.

وكان يدعوني لسماع إبداعاته من قصائد وقصص في أمسيات وندوات وحتى في معرض الكتاب كانت له صولات وجولات.

لكن كل هذا ليس هو الموضوع الآن بالضبط.

فالقصة هي أنه اتصل بي بعد غياب سنين وطلب مني أن أسرع للقائه في كازينو الجريون في وسط البلد.

كـان عـاطف يجلس على ترابيزة منزويـة في حـديقـة الجريون وأمـامـه فنجان قهوة وتناثرت عل المفرش بقايا السـجائر بشـكل مقزز ونظر إلى بواحدة من نظراته الغامضة التى تعلمها بعد أن أصبح مبدعا.

. يا رب توقعاتي تخيب!.

كان هذا دعائي طوال المسافة من ميدان رمسيس وحتى ميدان التحرير، فالأسـتاذ "عاطف على نفسـه" كما كان يسـميه بقية أصـدقائه الحميمين (طبعا في غيبتـه) كـان قد تزوج من حب حياتـه جيهـان عزيزي.. وهي مثله وقد تزيد عليه في اللســعان، خاصــة أنها أصــدرت ثلاثة دواوين شعر ومجموعة قصصية أو العكس، فأكثر ما أكرهه في حياتى هو أن أقرأ شيئا لا أفهمه.

عموما فيما يبدو أن أول توقع في الدعاء لم يقبله الله، فقد رأيت عاطف يبدو حزينا مهمل الثياب ولم يحلق ذقنه منذ وقت طويل.

قال في انكسار لم أتوقعه بعد فترة صمت ثقيلة

: تخيل جيهان تخونني مع حمادة شوقي؟!.

"لا والنبي يا عاطف!".

هكذا قلت في نفسـي سـاخرا، لأن الحقيقة أن جيهان لا تعرف الخيانة.. لأن ما عرفته عنها هو أنها لم تكن مخلصــة من الأســاس حتى تكون

خائنة.. ثم إنه لو فيها خيانة يبقى الأســـاس أن جيهان خانت حبيبها حمادة شوقي مع عاطف زوجها وليس العكس!.

فالبيه الذي تزوجها منذ خمس ســـنين، كان يعرف أن علاقة وطيدة ربطت بين شـــوقي وجيهان قبل أن يظهر في حياتها أو تظهر في حياته.

و"علاقة صداقة وطيدة" هو الاسم الذي اقتنع به صاحبنا "عاطف على نفسه" أو أقنعته به الهانم.

طبعا كلنا في أيام الكلية، كنا نعلم ما بين العاشـــقين الحميمين وكانت جيهان تلزق في جنب حمادة في المدرج وأحيانا تسند رأسها على كتفه علنا وتلعب في شعره.

بصراحة البنت كانت تستحق لقب "فرد روسي" الذي أطلقناه عليها، إذ أن جمالها كان فائقا حتى لتبدو كالروســـيات، لكن يا حســـرة تدهورت علاقتها بشوقي لأسباب لا نعلمها لأنهما كانا في "شلة" بعيدة عنا نوعا ما.. كانوا كلهم يعيشون دور شيوعيين على ناصريين على يساريين وزفت طينٍ!.

ورغم امتداد علاقاتهم ومعارفهم، إلا أن لهم عالمهم الخاص الذي لا يطلعون عليه أحدا من غيرهم مهما كان.

كما سمعنا أن الهانم الفرد الروسي "أسقطت" حملها مرتين من حمادة شوقي وكانوا يقولون إن هذه الأمور مشهورة في أوساط الجماعة الشيوعيين في الجامعة وغير الجامعة!.

وعلاقة حمادة وجيهان ليست الفريدة بينهم.

عموما هم يقولون ذلك.. ولكن جيهان اصطادت عاطف الكيكي وسحبته للطريق وكلمتين في حوارين، حبوا بعض ولأن الولد غلبان وطيب ودحيح، وقع بل وتفرغ لحبها وكان لابد أن يكون على شاكلتها، لأنه يا مسكين لا يحمل عشر معشار عشير خبرتها الحياتية والثقافية.

صحيح.. نسيت أقول إن أحد أهم أسباب ضعف شخصية عاطف، هو أنه يصغر جيهان بسنوات ثلاث.

وقيل إن جيهان عادت إلى "حمادتها شوقيتها"على أنه صديق قديم فقط، بل وعرفته بحبيبها الجديد "عطوفة" الذي عاش الدور كمثقف ثوري وقبل بوجود حمادة كرفيق صميم بينه وبين حبيبته ثم زوجته!.

وطبعا لقب الرفيق أساسي عندهم بكل معانيه التنظيمية والشعبوية!.

وقيل عنهما إنهما التحقا كأعضاء بمجموعة "الجراد" الثقافية المشهورة في الوسط الثقافي بالقاهرة، فهم على ما يروى عنهم، يبيحون كل شيء

ولا يؤمنون بأي قواعد للسلوك ومغرمون بالجنس ويدعون لتبادل النساء بينهم ولو كن زوجاتهم أو حبيباتهم أو صديقاتهم.

. على النعمة عالم آخر منجهة.. لكن من يتحمل؟!.

ولو المسألة لا تشترط زواج وإلحاد، يمكن كنت أفكر!.

قال لي مرة صـــديقي أحمد عبد المغيث وهو يحكي عن هذه الجماعة وتحررها

: يمكنك أن تعرف الواحد من هذه الجماعة بنظراته السافرة إلى النساء وخصـــوصـــا وعينيه تكاد تمزق ملابســـهن.. ولهم اهتمام عجيب بالمؤخرات.

عموما ســمعت من يشــكك في وجود هذه المجموعة أو الجمعية ويقول إن الأعضـــاء الحقيقيين للجمعية انقرضـــوا ما بين ميت ومهاجر وبالغ من العمر أرذله.

أما الباقون، فهم مدعون لا يمتون للجمعية بصلة، إلا بعض السلوكيات التي يمكن أن تجدها عند أســافل الناس في كل مكان وزمان دون عناء من ثقافة ولا من إلحاد ولا يحزنون!.

يا عم دع الملك للمالك.

ثم إن هؤلاء قوم لا يعترفون لا بملك ولا بمالك.. فمن يحاسبهم؟!.

أستغفر الله العظيم!.

وأشـــار عاطف إلى ترابيزة بعيدة على اليمين في حديقة كازينو الجريون وهو يقطم فلتر السيجارة ويقول

: كانا يلتقيان هنا كلما ســـافرت في مأمورية شـــغل.. ويســـكران معا ويمضيان.. وأنا أعرف جيهان جيدا عندما تسكر!.

ومضـى عاطف يقول وكأنما يتعلق بي لأني الوحيد الباقي من أصـدقائه خارج هذه المجموعة المحيطة به الآن، فقال وكأنه يعترف متطهرا: ياما نبهت عليها ألا تلتقي بحمادة في غيبتي.. وكنت أتسـامح في أنه يسـلم عليها بالقبلات ويتلفظ معها بألفاظ سافلة.. صـدقني أنا حاولت كثيرا أن أأتلف مع حياة المثقفين هذه ولكن بعد كل هذه السنين لم أعد أحتمل.

الفارق قبل جيهان أنى كنت أصـــدق كذبي وأنا أظن أنه صـــدق.. أما الآن فأنا أصدق كذبي وأنا على يقين بأنه الكذب!.

وفجأة انتفض عاطف واقفا وعلا صـوته.. لكن والحمد لله، كان الجريون في هذا الوقت شبه خال من الرواد.

قال: بـالأمس كنت حمـارا ولكنى كنت أرتـاح في حموريتى أمـا الآن فلا يمكن أن أتحمل حياة الخنازير.

واحمرت عيناه وهو يقول: أقســـم بالله إن بنت الخنزير، تعلن إلحادها حتى تبيح لنفســها كل شــيء كأي عاهرة في وســط البلد تتحجج بأكل العيش!.

إنها لم تحمد الله لأن حمارا مثلي تســـتر عليها ولم فضـــائحها، لكنها أصـرت على أن تحولنى من حمار لخنزير حقير مهمته أن يكون ستارا لعشيقها القديم؟!.

أما أنا فتزوجت منها ووجدتها تتناقض مع أفكارها التى كانت ترددها عن تخلف الزواج كمشـــروع اجتماعي متصـــل بأهل أم الثقافة البرجوازية.. وتزوجنا على ســنة الله ورســوله ونحن نكفر بالله ورســوله وبكل شيء عامدين الكفر!.

لكن لماذا إلحاح الضمير؟!

كيف تتسـلل المرارة لأعماقنا وترسـخ فيها حتى تتعفن ونتجاهل كلا من العفن والمرارة معا؟!.

وهمس لي بحســـرة: هل تعرف ما هو ســـر تعلقها بهذا الوغد؟!.. لأنه الوحيد الذي يشــعرها بأنها مظلومة.. والمظلوم يبرر لنفســه كل شــيء ويبيح كل المحرمات.. وهي مظلومة يا عيني لما رماها أيام الكلية مثل الكلبة الجربانة عندما فاحت روائح فضـــائحهما في كل مكان.. هل تعرف لماذا لم يتزوجا رغم ما بينهما؟.. آه أقولك إن أباه المحامي

الكبير لا يمكن كان يوافق على زواج ابنه من بنت أمها تمرجية في مستوصف أميري!.

طبعا لازم تطلع جيهان شيوعية.. لأن الشيوعية عندنا في مصر ليس لها معنى سوى إباحة الجنس.. مع إن .....

. كفى

بالتأكيد كان لابد أن أوقف عاطف لأن كثرة الكلام ستجعله في الطريق إلى الجنون المؤكد!.

. كفاية يا عاطف طلقها وارتاح.

. لو طلقتها ستأخذ منى الولد والبنتين وسيكون مصيرهم أشد سوادا.

. هذه أمور يمكن الاتفاق عليها

ـ أنت لا تعرفها.. إنها عنيدة وسوف تستثير ضدي زميلاتها المحاميات والناشطات في جمعيات حقوق المرأة والطفل.

ووقف عاطف حتى لفت الأنظار وهو يصرخ

: إنسانة معفنة.. إنها تعشق العفن في كل شيء.. إنها لا تستحم حتى تفوح منها الروائح النتنة التى لا تخفيها كل أنواع العطور، حتى بعد لقاء جسدينا فإنها لا تستحم.

فهدأت من روعه وأجلسته حتى هدأ تماما ثم استأذن للذهاب إلى دورة المياه وتركنى أعيد سريعا مشاهد من الذكريات مرها وحلوها وتذكرت كم كانت جيهان جميلة ثم بدا هذا الجمال يزوي حتى لم يبق منه سوى ذكريات لمن كان يعرفها فقط في زمنها الغابر.

كانت جيهان تحمل من الآلام والأحقاد ما تنوء بحمله الجبال الرواسي!.

يبدو هذا واضحا جدا خاصة عندما تشرب حتى تسكر كما يقول عاطف، إنها تدفن همومها في الجنس كما كانت تقول هي.. لكن.. حقيقة فإن رائحة كريهة تفوح منها.. ربما لأنها كما قال عاطف منذ لحظات أنها.....

نهار أسود.. سامحني يا عاطف يا صديق عمري.. فلم يكن لقاؤنا معا أنا وهي سوى مرة واحدة ثم انسلخنا كالجوربين القديمين.

كان هذا الذي تدهمنى ذكراه كرصاصة قد حدث بعد لقاء مصادفة بيننا في محكمة عابدين وكنت اعرف أنك مسافر في مأمورية شغل!.

سامحنى وسامحها وسامح حمادة شوقي وكل جورب قديم نزعته من ساقيها!،

ثم إنك ابتعدت عنى فترة طويلة حتى ظننت أنك لم تعد صديقي.

ثم إنى لم أكن وحدي يا صديقي.

ثم إنك سبق أن أبحت لها كل شيء.

وعاد عاطف من دورة المياه فبادرته قائلا: عاطف.. كل الذنوب تقبل الغفران ولن تجد أنت من يتحمل منك غيرها ولن تجد هي من يتحمل منها غيرك.

وغادرت الجريون وأنا أدعو ألا تجمعني صدفة بأيهما مرة أخرى.. ولعل هذه المرة يتقبل الله منى الدعاء!.

١٦- تقرير الأستاذ سري

طار فرحا عندما علم أن رئيســـه في العمل رشـــحه للانتقال من عمله للعمل في جهة من تلك الجهات التى تجعلك تشـــك في نفســـك وتلفت حولك عند ذكرها ولم يبق ســوى بعض الإجراءات ومضـــي متلهفا لليوم الموعود، ذلك اليوم الذي تأتى فيه البشرى بتحقق ما فوق الحلم.

قديما كان الفتى "ســري حمدي ســري واصــل" طالب الثانوى المتفوق، يحلم بأن يدخل واحدة من كليات القمة، وها هو ذا قد حدث.. كما كان يحلم بأن يلتحق بالعمل بإحدى المؤسسات الكبرى.

وقد كان.

ثم كان حلمه الأكبر أن يتزوج (واحدة حلوة وبنت ناس).

وها هي ذي أم ولديه تقبع في شقته بأرقى أحياء القاهرة.

والآن انتهينا من تحقيق الأحلام ولم يتبق إلا مرحلة ما بعد الحلم التي يبدو أنها ستبدأ من ذلك الموقع المنتظر.

وبدأ ينتظر تحديد موعد المقابلة التي ســيخرج منها واضـــعا قدمه على أول الطريق الجديد لما كان يوما فوق الحلم.

ويأتيه اتصـال من رئيسـه المباشـر في العمل فيذهب إليه من فوره وهو على يقين بأنه سيخبره *بالموعد المرتقب*

: اسـمع يا سـري يا بني أنت إنسـان ناجح ومهذب وبن ناس والتحريات والتقارير عنك ممتازة ونحن نتشـــرف بوجودك في ذلك الموقع الذي رشـحتك له أنا شـخصـيا لكفاءتك وآثرت مسـتقبلك هناك على وجودك معي بالرغم من اعتزازي بك ولكن لا أعرف السبب الذي جعلهم يرسلون إلى كل زملائك واحدا تلو الآخر ويتأخرون في طلب ملف أوراقك.

وأردف رئيسه ليخفف من حده القلق الذي بدا عليه فقال له: اصبر قليلا فعلى رأي المثل كل تأخيرة وفيها خيرة!.

وخرج سري واصل لأول مرة يتأمل كلمة الصبر، فكل شـيء في حياته كان يمر دون حاجة لتذكر الصـبر.. إنه حقيقة إنسـان يشـهد له الجميع بالاجتهاد، لكنه كان يفعل ما عليه دون حاجة للصبر فحياته تبدو يسيرة إلى حد كبير نجاح يتلوه نجاح في الدراسة والعمل والحياة.

فما الحاجة إذن للصـــبر ما دام كل ســـيء يتم في موعده وبعد الخطوة المحددة.

كانت زوجته دائما تتحدث عنه بفخر المتوجسة من الحسد فتقول: سري عيبـه الوحيد أنـه منطقي فوق التحمل وعملي فوق طـاقـة الاحتمـال فـأنـا سـألته يوما: ماذا لو لم أكن ابنة رجل في مركز وثراء أبي وعائلته، هل

كنت ستتقدم للزواج منى، فأجابني بكل هدوء وكأنه كان يتوقع سؤالي هذا فقال: وأنا إن لم أكن ناجحا ومجتهدا ومناسبا للاقتران بمثلك، فهل كنت ستوافقين على الزواج بي؟!.

كان سري واصل يرى أن اقترانه بزوجته هذه سيكون حافزا أكبر على الارتقاء، فأقاربها يشغلون مناصب رفيعة في مراكز مختلفة ولابد أن التقرير الأمني المتوقف عليه التحاقه بالعمل الجديد سيشير إلي ذلك.

لكن تأخر الإجراءات جعله لأول مرة في أمس الحاجة للصبر، لكن القلق غلب أول تجربة للصبر عندما راح يتلصص الأخبار حول التقرير الأمني، فكل أقاربه وأقارب زوجته حتى الدرجة الرابعة على الأقل، ليس في حياتهم ما يعيبهم أمنيا.

لكن دبيب اليأس تسرب إلى أعماقه لأول مرة في حياته بعد أن استقر كل المرشحين من زملائه والذي كان من المفترض أن يكون هو في مقدمتهم، على مكاتبهم الجديدة.

ولأول مرة بعد خروجه من مكتب مسئول أمني كبير، يشعر أن قوانين الكون قد شطبته من حسابها بعد أن كان يرى أن نجاحه واحد من بين هذه القوانين الحتمية، فكلام المسئول الأمني كان أقرب إلى تقديم العزاء أو الشفقة وتلك أحاسيس لم يدر بخلده أن يعرفها في يوم ما في حياته!.

وأطبقت سحابة من الغموض حتى صار يتعامل مع كل من حوله بأنه السبب في فقدان فرصة ما وراء الحلم.

ـــــ آه لو اقتصرنا على تحقيق ما كنا نحلم به، إذا لكانت هذه الحياة مرحلة تمهيدية إلى الجنة.

ـــ لكن فيما يبدو أن تجاوز الأحلام هو الطريق المفضي بالضرورة إلى سواء الجحيم!.

هل كان من المستحيل أن يعرف السبب الذي دفعه إلى هذا الجحيم دفعاً؟!.

كان الدافع الوحيد للأستاذ سري للبحث عن سبب عدم الموافقة الأمنية على التحاقه بالموقع الجديد، هو أن يثبت أن فشله الأول في حياته لم يكن هو نفسه السبب فيه وراح يتفحص كل من حوله لكن دون جدوى، حتى كاد يصيبه مس من الجنون.

ساعده أصدقاؤه من الضباط بالرجوع إلى السجلات الجنائية لكل من كان يشك فيه، لكن الحقيقة أن كل الأسماء المحيطة لا تشوبها أدنى شائبة.

إذن فالأمر لن يخلو من وشاية كاذبة أو موقف ما متعنت من شخص ما له نفوذ يترصد به ويبغي إسقاطه وإذاقته مرارة الفشل!.

وبدأ في سلسلة من الشكاوى الشفوية والمكتوبة لكل من تساوره الشكوك بأنه يسعى لإيذائه.

. عندما يكون عدوك مجهولا فإنك تراه على كل وجوه من حولك!.

تبدلت حياته وصار أسهل شيء لديه هو يستجلب العداوة حتى صار مزعجا لكل من حوله.

وحتى يفيق واصل من غيه جاءته كلمات كالرصاص من ضابط كان سري قد سيق أن انهال عليه بالشكاوى رغم أن صداقة حميمة ربطت بينهما قديما فقال له بعد أن استدعاه إلى مكتبه مضطرا.

: اسمع يا واصل إنك ظلمت كثيرين وخاصمت الكثير ممن حولك، وكنا جميع مستعدين على التحمل لأقصى درجة لولا أنك صرت مصدرا للإزعاج فوق الاحتمال، فأولا أريد أن أخبرك أن السيدة زوجتك سبق وهي في مقتبل حياتها أن ضبطت في قضية آداب داخل فندق كبير، وكان ذلك قبل أن تتعرف عليها ولم تكن لتعرف ذلك لأنها وقت ضبطها كانت دون الثامنة عشر من العمر أي أنها كانت قاصرا ينطبق عليها قانون الأحداث فلا تثبت الواقعة في صحيفة حالتها الجنائية "الفيش والتشبيه" وحتى بعد أن كررت الجريمة وهي طالبة في الجامعة، لم تظهر هذه السابقة في الفيش لأن قضايا الآداب لا تكتب صراحة فيه.. بالتأكيد أنت لم تكن تعلم لأنك عندما تقدمت للزواج منها لم

يخبرك أحد وفضـــلت الانبهار بمســـتواها المادي والعائلي.. أعلم ان الصدمة ستقلب حياتك رأسك على عقب لكنك يا أستاذ واصل تريد أن تلصق فشلك في شخصي رغم صداقتنا السابقة.

هل شعر الأستاذ واصل بالراحة بعد نهاية عناء رحلة شاقة في البحث عن عدو وهمي؟!.

وهل كان إقدامه على طلاق زوجته والدخول في دوامة صراعات مميتة كتبعات لقراره بالانفصـــال، نوع من الحل الذي ســيريح ضــميره بأنه لم يقصر في حق نفسه؟!.

ولا أحد يستطيع أن يجيب، فسري واصل لم يعد يحدث أحدا أو يسعى للحديث مع أحد إلا لدواعي العمل لأنه في النهاية إنســان عملي وناجح مهما ارتسمت علامات الفشل والمرارة على صفحات حياته الحالية!.

١٧- هذه الخيانة يحميها القانون!

سؤال أول: ماذا لو ضبطت زوجك متلبسا بخيانتك على فراشك داخل غرفة نومك؟!

وسؤال ثاني: وماذا لو ضبطت زوجك متلبسا بخيانتك لكن على فراش امراة أخرى في غرفة نوم أخرى؟!.

هذان سؤالان كان لابد أن تسألهما الدكتورة "سين" لنفسها، لكنها للأسف عرفت إجابتهما قبل أن تطرح السؤالين!.

عموما الإجابة على أي من السؤالين، قد تبدو واحدة من حيث الآثار النفسية والعاطفية والاجتماعية، لكنها تختلف اختلافا كبيرا من حيث الآثار القانونية، ففي حالة السؤال الأول، فهناك جريمة مكتملة الأركان ومن حقك كزوجة أن تتهمي زوجك بالزنا، بل ويقدم على أثر ذلك إلى المحاكمة لتصدر حكمها بالحبس لمدة لا تزيد عن ٦ شهور تطبيقا لنصوص قانون العقوبات المصري.. هذا بدون حساب الفضيحة التى ستلازم حتما كل إجراء من إجراءات القضية.

أما في حالة السؤال الثاني فليس أمامك سبيل سوى الفضيحة وحدها كعقاب للزوج الخائن دون أي مسئولية جنائية أومدنية تقع عليه، ذلك لأنه رجل آثر أن يحترم القانون الذي لا يرى في خيانة الرجل لامراته

جريمة، طالما التزم النهج القويم وسلك المسلك القانوني المتحضر وابتعد عن بيت الزوجية الطاهر، ليقضي شهوته بعيدا عن فراش زوجته، وليس للزوجة أي حق في ملاحقته قانونا!..

القانون في صفه.. القانون يحميه!.

"فالحقيقة تختصرها هذه الكلمة الهزلية للفنان فؤاد المهندس في مسرحية كوميدية له".

فليس ثمة جريمة قد وقعت!.

سوى ذلك، فليس لك كزوجة مكلومة بعد كل هذا، إلا أن تمسحي دموعك في صمت وتتحملي تلك الطعنة وتعودين إلى بيتك لتبحثي عن وسيلة أخرى للثأر لكرامتك!.

تماما كما فعلت الدكتورة "سين" الأستاذة السابقة بإحدى كليات الحقوق في مصر والتى آثرت بعد حصولها على الدكتوراة، أن تتفرغ لبيتها وأولادها، لاسيما أن قصة حب رفيق حياتها تضرب بجذورها في أعمق أعماق حياتها.

خمسة وعشرون عاما قضتها "سين" في أهنأ حياة ممكنة لزوجين، كانت تشعر خلالها بأن الأقدار قد كافأتها بهذا الرجل لتمضي الحياة معه في رحلة ممتعة على هذا الكوكب العجيب.

وفي كل مكان انتقلا إليه ركضا وراء النجاح، كانت الحياة ترسل لهما ثمرة من ثمرات الرحلة، فقد أنجبا أربعة من الأبناء والبنات، ففي كل مكان عاشا فيه سويا سواء في الخليج أو أوروبا أو شرق آسيا أوكندا، كان كل مكان من هذه الأماكن يتحفهما بشـــهادة ميلاد لأحد أولئك الأبناء.

لكن من هذا الذي يترك الحياة تمضـــي حاملة كل هذا الحب وكل هذا النجاح؟!.

فقد بدأت رســـالت مشـــفرة تفهمها الأنثى وحدها، تحثها بما لم تكن تحتسب!.

وبالطبع كان لابد من أن يتسلل القلق إلى صدر الدكتورة "سين" بسبب تلك الإشارات الغامضة التى ترسل بها غريزتها الأنثوية تجاه تصرفات من زوجها ورفيق عمرها، لكن امرأة تحمل عقلا مثل عقل الدكتورة "سين" ما كان لها أن تهدم حياتها الزوجية لمجرد شكوك أو أوهام.

: شكوك أو أوهام؟!.

الأمر لم يكن أبدا بهذه السذاجة، فليس حبا فقط ولا حتى رحلة حياة ولا أكليل نجاح، ذلك الذي حامت حولة شـياطين الشـك، إنه كيان عظيم لرجل عظيم لم تكن ترى في الوجود كله ما يدانيه، فقد كادت "ســـين"

تتهم نفســـها في عقلها، فذلك أيســـر بكثير من أن تهمة تهتز فيها صورته.

. هل يمكن له أن يخونك بعد كل هذا العمر؟!.

ـــ وآه من كلمة "هذا العمر" فها أنت يا "سين" تنعين جمالا قد مضى وانطلاقا قد خبأ ووجها غلبته الســـنون.. أين عيناك اللتتان كانتا وطنه صـــباحا ومســـاء؟!، هاهما تختفيان تحت انتفاخات الكبر الزاحفة تحت الجفون؟!.

أين مرح الأنوثة وقد هزمه وقار الخمسين الكريه؟!.

أين رحيق الشباب وقد صار ذكرى لم يبق منها سوى غصة تبعثها إليك الصور القديمة؟!.

اهدئي وتثبتى فلعله كابوس سيتبدد ظلامه عند نهاية النفق المقبض!.

بيتك.. حياتك.. أولادك.

لكن إلى متى سـيظل هذا الموقف المتعقل مسـيطرا على انفعالات أنثى تتحســـس جراحات تنذر بما لا يطاق من الآلام؟!.. هيهات هيهات.. فهي ذي الدكتورة الوقورة تكاد تتبع الزوج في كل نفس وفي كل التفاتة.

بل سلم العقل رايته لطبيعة الأنثى مستسلما، عندما سارت كالمجنونة تتبع خطواته من ورائه لتعرف مع من يخونها، فهي لم تعد تطيق تلك الرسائل القادمة من أعماق أنوثتها والأمر لم يعد يتعلق بالشك أو اليقين حتى تتحقق.

فهناك لغة ما تستعصي على أي ترجمة لا تفك شفراتها سوى أنثى.

وهناك في فندق على شاطيء الإسكندرية جاءها اليقين بأنه مع امرأة أخرى غيرها.

ياربي: ماذا يمكن أن تفعل؟!.

أيتحدث الناس بفشل رحلة عمرها وأنها لم تستطع أن تفعل شيئا مع هذا الخائن العظيم؟!

ستكون فضيحة يواري الأبناء وجوههم منها.

لكن الأمر تكرر في شقة في الحي المتميز بمدينة ٦ أكتوبر واستطاعت من خلال فتحة نقاب ارتدته خصيصا، أن تراه خارجا يركب سيارة عدوتها الجديدة وهما يتضاحكان معا!.

والمصيبة الكبرى هي أنه يعود بعد كل مغامرة، بوجهه المعتاد الوقور وكأن شيئا لم يكن وبراءة الأطفال في عينيه!.

ـــ قل إنك ضعيف.. قل إنها هي التي هزمها الزمان.. لكن لا تقل أبدا إنك تعلمت كل هذا الخداع أو أنك أتقنت المكر فجأة إلى هذه الدرجة!.

وكان القرار صـــادما للجميع عندما حملت حقيبة صـــغيرة ورحلت عن البيت إلى شـقة صـغيرة كانت تقيم بها الأسـرة في مدينة بنها، ولم ينبس بكلمة أمام قررها واكتفى بالصـــمت أمام تفســـيرات أبعد ما تكون عن الواقع حتى اتهمها البعض بالجنون!.

أتتركين زوجك وأولادك بعد كل هذا العمر؟!

أنت لا تقدرين موقع زوجك ولا مكانته الكبيرة

كيف لأم أن تترك بيت زوجها وإحدى ابنتيها تســـتعد للزواج؟!.. لكن هناك أمور أقسى من أن يحتملها قلب أو عقل.

ابن خالها ضـابط المباحث في قسـم مدينة ٦ أكتوبر الذي هرعت إليه، نصـحها بأن تتحلى بالصـبر، فلن يمكنها أن تجنى من المحضـر الذي حضـرت إلى قسـم الشـرطة لتسـتشـيره في تحريره ضـد زوجها الخائن، سوى الفضـائح وسـيرجع الزوج مرفوع الرأس حتى لو جاء ملفوفا بملاءة مع شريكته فوق جسديهما العاريين!.

. كيف؟!.

ـــ أليس غريبا أن تسألي أنت هذا السؤال يا دكتورة فأنت فيما يبدو أنك نسـيتي أن الزوج وحده هو الذي له الحق في تحريك دعوى الزنا ضـد زوجته في أي مكان تمارس فيه هذه الفاحشـة، أما الزوجة فليس لها هذا الحق، إلا في بيت الزوجية وهو ما لم يحدث!.

وأضـاف الضـابط في يأس: "الوضـع الوحيد الذي يمكن فيه إدانة زوجك هو أن تكون شـريكته في الجريمة متزوجة ويأتى زوجها ليحرك دعوى الزنا ضدهما.. غير ذلك فلا أنصحك بفعل شئ".

وخرجت الدكتورة "سين" مستسلمة "للانصيحة" الضـابط، فمادام القانون قد كتبه رجال، فلا جدوى من فعل أي شيء!.

١٨- أوكار يعجز عنها الشيطان

كانت السهرة هذه المرة على كازينو في شارع السودان في المهندسين وقبل أن ندخل همس لي صديقي حسام الذي عرفنى على صاحب الكازينو

. الليلة سنسهر في ركن خاص لا يدخله إلا المحظوظون.

وهذا الركن له مدخل خاص يبدو عاديا جدا ولا صلة له بالكازينو الذي يقع في الدر الأول بينما المدخل في الدور الأرضي، وهناك علمت أن فنانة مشهورة مع زوجها الفنان المشهور أيضا، سيشاركان في السهرة التى سوف تقتصر على الفنانة ورجل أعمال من الأثرياء الذين لا يسعون للشهرة وصاحب الكازينو ولحسن الحظ ضابط شرطة من الدائرة الأولى لأصدقائي والناقد الفنى وأنا.

وما المناسبة؟!.

قال إيه.. حفل ملحق بعيد ميلاد صاحب الكازينو الذي كان منذ أسبوعين ولم تحضره الفنانة لسفرها فعندما حضرت بسلامة الوصول، قررت أن تحضر الحفل الملحق في جلسة خاصة فيها كان صديقي حسام الذي هو اسم الضابط وكذلك هو اسم زميلي الصحفي الذي أصبح لقبه المفضل هو ناقد فنى وكان قد يرتبط بصلة صداقة وطيدة

بصـــاحب الكازينو الذي آثره بهذه الدعوة التى كان مقررا أن يحضـــرها زوج الفنانة غير أنه اعتذر عن عدم الحضور لظروف عمله.

ربما كانت هذه هي المرة الأولى التى أجلس فيها على مائدة ويكون من بين المسـتديرين حولها فنانة مشـهورة لأراها وجها لوجه وانتابتنى الحالة الطفولية السـاذجة لرؤية فنانة والحديث معها ولكني تماسـكت حتى لا تبدو علي علامات البله المصـاحبة لرؤية نجوم الشـاشـة، ومع أنها لم تكن نجمة شـباك إلا أنها لا تقل شـهرة عنهن، بل وتمتاز بجمال خارق لا تفوقه إلا خفة دمها وانطلاقها وجرأتها المحبوبة الملازمة لكل هذا الذي أوصـف ومع أن جسـمها وجمالها يؤهلانها لأن تكون نجمة إغراء باقتدار، إلا أن أدوارها في غالبها كوميدية أو قريبة منها، فهكذا طغت عليها روحها المرحة التى كثيرا ما لا تتناسب مع أدوار الإغراء الذي قد تتطلب خليطا عجيبا من الرومانسـية على الخبث على ثقل الدم أحيانا، فهي لا تصلح لأدوار الإغراء لأن كل شـيء فيها يضـحك حتى شـعرها المنسدل على كتفتيها.

إن أردت الإثارة فليس هنا بغيتك، مع أنها بيضـاء ملسـاء، مثل لمبات النيون كبقية بنات طائفتها، فقد سـبق أن مثلت أدوارا فيها دور المنحرفة وأخرى كانت تظهر بالمايوه البكينى وبدت فيها مثيرة للغاية، لكن ما أن تتكلم حتى تلفتك عن جاذبية جسـدها إلى مرح روحها، فتحبها ضـاحكة مستبشرة ترغمك على الابتسام!.

آه..

نســـيت معلومة مهمة جدا وهي أن أذكر أن الطائفة التى تنتمي فنانتنا إليها لا تمت لمصـر بصـلة، إلا بخانة الجنسـية في الأوراق والسـجلات الرســمية والتى اكتســبها الجدود مع اللهجة القاهرية بأصــواتها المميزة ومصـطلحاتها الخاصـة وخفة الدم الخالصـة ولكنها لم تشـتهر بين الناس أنها من هذه الطائفة، فلا يعرف ذلك إلا القليلون.

كل هذا فيها؟!.

نعم وأكثر وكما لا تصـلح لأدوار الإثارة، فإنها لا تصـلح أيضـا لأدوار الحب، لأنها لن تكون مقنعة في النكد التى يتطلبها الحب المرتبط دائما بـاليـأس والهجر والـدموع، بـل حتى عنـدمـا يقترن الحـب بـالمرح في المشـاهد، يبدو كفسـحة سـجين في سـاحة سـجنه، فلابد إذن من طعم الحنضل والمرار الطافح.. وهي ليست لها قدرة على ذلك!.

قال لها أحد المخرجين العباقرة: أنت لا تصـــلحين لدور "المومس" على فراش الزبون ولكن فقط المومس التى تهزأ من الزبون وتضـــحك عليه بقية المومسات!.

ممكن أيضـا أن تصـلح لدور قوادة عندما أوغلت في الخمسـين، بشـرط أن تحبها فتياتها!.

غير أن هناك أهم من ذلك كله هو أن للكاميرا عيون خاصة لها شروطها التى لاتظهر إلا من خلالها، فأحيانا تفرض على الممثل أدوارا يظل أثيرها وتتجاهل إن كان لديه ما يؤهله لأدوار أخرى، فالكاميرا تتعامل بديكتاتورية طاغية لا تعترف بما يراه سواها!.

حقا هي تجلس أمامي الآن لا تصلح لأى شيء مما سبق، سوى استثمار وجهها البشوش وبحة صوتها المجلجل وحركتها المغرقة في الكوميديا ووجهها لم تغزه أبدا علامات الكبر، فلن تصدق ساعتها أن الذي تجلس أمامي ولا تكف عن الضحك، أنها جاوزت الخمسين من العمر، إلا لو أعطيتها عمرا تقريبيا في أدوارها الأولى مع مقارنتها بعمرك عندما عرفتها!.

وعلى مثل عادة الجميلات الحاليات والسابقات، يلوح في أعماق عينيها حزن غامض يتناقض مع شخصيتها الظاهرة، أثر هذا الحزن – لو ركزت فيه– يبدو أيضا في صوتها.

. هل هي أوهامي؟!.

أم أن أجواء الحفلة الصغيرة لعبت برأسي؟!.

مدت يدها بكأس من الويسكي الفاخر لتعزمنى عليه، لكنى اعتذرت بحسرة، لا لأنى أرفض مبدأ العزومة أو حتى الشرب، لكن لأني منذ

الصباح وأنا أشكو حموضة جعلتنى لا أجرؤ على شرب أي مواد تهيج المعدة!.

وللأسف أفلتت الفرصة الأولى لمكاسأة فنانة كبرى!.

وقلت لها باسما معتذرا: سامحيني أنا ليس لي في الشرب، لكن الكاس منى لك.

وصدقني لا أعرف – حتى الآن– ما السر في أن كلمة "منى لك" اعتذار مقبول وله حجيته في مجالس الشرب!.

لكن أهم معلومة أقاوم كتابتها منذ السطر الأول هو أن هذه الممثلة المحبوبة كانت ضمن عضوات واحدة من أشهر وأكبر شبكات الآداب وكان فد مضى على أحداث القبض على هذه الشبكة ما يزيد عن عشرين عاما قبل هذه الجلسة التاريخية!.

كان وجودها هي وثلاث فنانات أخريات في هذه الشبكة، صدمة قوية بالنسبة لي عندما طالعت ما استطعت الوصول إليه من نصوص التحقيقات، فعندما وقعت أحداث هذه القضية، كنت لم أبرح طفولتى بعد، لكن كان لها دوي كبير وانتهى الكلام من الساحات الإعلامية والقضائية عن هذه القضية وقيل إنه لورود أسماء يمكن أن يؤدي ترديدها لأزمات سياسية داخلية وخارجية!.

وكانت مديرة الشبكة فنانة مخضرمة معروفة بأدوارها وملامحها المستفزة التى طغت على جمالها على الشـاشـة وحصـرها المخرجون – تنفيذا للأوامر الطاغية الصـادرة من الكاميرا – لتمثيل أدوار السـت الشـريرة والمفترية مع أنها شخصية في منتهى الشياكة والذوق خارج البلاتوه!.

ثلاث من عضـوات الشـبكة لا يمكن أن تتخيل أن واحدة منهن كانت تحترف الدعارة يوما ما أو أنها تتلقى الأمر من القوادة لتسـتلقى على فراش الزبون ثم تأخذ نسبتها من ثمن جسدها!.

وجوه الثلاثة ظلت محبوبة للجمهور حتى ما بعد القضـية والدليل أن القضـية – التى حفظت فيما يعد– لم تؤثر على جاذبيتهن وبقيت واحدة أو اثنتان من عضوات الشبكة جميعهن، هما اللتان التصقت بهما شهرة هذه شـبكة الآداب، إحداهما ممثلة إغراء ظهرت في أحد أفلامها عارية تماما ولكنها لم تشـتهر سـوى بهذا الفيلم وكانت أغلى عضـوات الشـبكة ثمنا عن الزبون الواحد في الليلة الواحدة واعتزلت هذه الفنانة وخفت صـيتها حتى ماتت بعيدا عن الأضـواء قبل لقاء ليلتنا بسـنين عشـر تقريبا!.

والثانية لها ملامح طفلة كبيرة وهي حلوة الملامح جذابة بقوة وماتت بعد مرض مفاجيء جعلها تبعد عن الأضواء!.

تحت أي ظرف، فالسيدة التى تجلس أمامي الآن، تشيع جوا من البهجة لم يخل بوقارها!.

. نعم يا حبيب ماما.. وقارها؟!.

طبعا وقارها، فكلما ازداد الوقار؛ ازداد ســـعر الاقتراب لمن يحمل هذا الوقار!.

وكلما زاد الاحترام؛ ارتفع ثمن التخلي عنه!.

فلا تظنن هذا في وســـط الدعارة فقط.. إياك.. إياك.. فإنك لا تعرف أنه عند درجة معينة في عالم المال والشـــهرة، يحدث تغيير كيميائي للقواعد الحاكمة للسلوك.. "الأخلاق سابقا"!.

ملت نحو صديقى ضابط الشرطة بعد أن استأذنت الفنانة للذهاب إلى الـــ "W.C" أو "دورة المياه سابقا" لأسأله ما الذي يدفع بممثلة مشهورة أن تعمل بالدعارة

: هل هل القصة قصة فلوس فقط؟!.

فقال بشيء من الحكمة كان مفاجئا لي: اسمع يا صاحبي.. هناك دائما "مهنة مكملة" تفرض نفســـها بجانب المهنة الأصـــلية، فالدعارة والقوادة بالنســـبة لكثير من المهن تعتبر "part-time job" لتحســـين الدخل أو لضـــروريات المهنة الأصـــلية، فلا يهم أن تكون الفنانة محترفة أو حتى

تعتبر أن الذي تفعله هو ممارسة دعارة، ولا يقتصر هذا على الفن، هناك سيدات الأعمال، فبعض الصفقات يكون بيات ليلة أو ليلتين مع الطرف الثانى في العقد، نوعا من أنواع التوثيق غير الرسمي للعلاقة وكذلك السكرتيرة عندما تقيم علاقة مع صاحب العمل أو موديل الإعلانات مع صاحب الوكالة أو أو أو.. ثم إن الدعارة في حد ذاتها ليست مقصورة على الجنس وحده كما أنها ليست مقصورة على النساء فقط!. وتدخل صديقي الناقد: الدعارة بشكلها التقليدى انتهت كمهنة مربحة من زمان، فهذه الداعرة التقليدية المسكينة التى تقف تحت عمود النور لتصطاد الزبون، هي أكثرهن خيبة، كما أنها لن تستطيع إلا أن تقبل ما يلقيه إليها الزبون أو القواد وهي كلما زادت خبرتها؛ قل ثمنها، أما الدعارة الحديثة، فلها شروط أخرى وأحد أهم هذه الشروط هو أن تبدو عزيزة يصعب الوصول إليها وكلما صعب الطريق زاد الثمن!.

وها قد عادت فنانتنا المحبوبة من رحلتها "الدبليوسية" تتساند من أثر السكر بين صاحب الكازينو وبين زوجها الذي اعتذر عن اعتذاره وجاء متأخرا، فهب صديقي الناقد ليرحب به، فعاودت السؤال لصديقي الضابط، لكن هذه المرة عن الزوج الذي لم تلوث صفحة تاريخه الشخصي أي تهمة أخلاقية حتى مجرد شرب الخمر!.

ولكنه بدلا من أن يجيبنى إجابة مباشرة، إذا به ينظر إلى كئوس وزجاجات الويسكي الفاخر على المائدة والتى لم تمتد يدانا لا أنا ولا هو

وقال ساخرا وهو يشد نفس من "شيشة تفاحة": بص للويسكي.. لو كنت أنا وأنت في غير هذه الجلسة، لانتهزنا الفرصة وشربنا منه وربما سكرنا ولكن المهنة والمكان يحكمان يا صـاحبي وليس أمامنا إلا أن نترك هذا المكان ونحن بكامل عينا احترامنا.. صدقنى الشيطان نفسه قد لا يجرؤ على دخول مثل هذه الأماكن.. هل معك سـيارة أم سـأوصـلك في سكتي!.

١٩- تقاطع شريف

كلنا كنا نعرف وجه هذا الرجل ولكن لا نعرف شيئا عنه سوي أنه يهبط من مسكنه في الصباح مرتديا ترينتج سوت من النوع الفاخر وهو يمارس رياضته الصباحية في الجري المنتظم علي رصيف شارع شريف ويبدو أنه كان يتجه إلى الكورنيش ليكمل رحلته الرياضية، فقد كان يمضي أكثر من ساعة قبل أن يعود؟.

وهو كما تنبئ قسمات وجهه، في منتصف الأربعين أو الخمسين على الأكثر، لكن لم نسمع منه صوتا سوى ابتسامه خفيفة كرد على تحية الصباح!.

ولا أحد يعرف منذ متى سكن هذا الرجل في شارع شريف ولا في أي شقة يسكن!.

البقال وبائع الجرائد هما الشخصان اللذان يتعامل معهما ولكن بأقل عدد ممكن من الكلمات ولكن أي منهما لا يعرف اسمه.

عموما لم يكن استثناء فالكثيرون مثله لا يريدون لأحد أن يعرفهم.

أبو كريم بواب قديم في المنطقة وفي رأسه معلومات وافية عن كل سكان الشارع، إلا هذا الرجلَ!.

ولكنه يقول إن هذا الرجل كانت له أسرة تصحبه في عبور الشارع أمام العمارة التي يظن الناس أنه يسكن فيها، وسافروا إلى الخارج عندما كبر الولد والبنت للدراسة ولم يعودا فلم يرهما أحد لا هما ولا أمهما.

طلقها؟!.

ماتت؟.

فضلت صحبة ابنيها؟!.

أبدا لم يفلح أحد أن يعرف أي معلومة عنهم.

وأبو كريم يفتى أحيانا بأنهم من الأرمن!.. فهكذا تبدو ملامحهم ولون بشرتهم

وكان أناس على شاكلتهم يزورونهم في مناسبات لا يذكرها أحد.

لا يكلمون أحدا ولا يتكلمون مع أحد!.

كما قيل إنه يعمل في سفارة!.

فأحيانا كانت توصله سيارة فاخرة تحمل لوحات هيئة دبلوماسية إلى الشارع ولكنه فيما يبدو يذهب إلى عمله ماشيا فهو ذو بنيه قوية ويعشق المشي ولم يره أحد يقود سيارة أبدا.. والسفارة فيما يبدو في الزمالك لأن معظم السفارات هناك.

معقول؟!.

عشرون سنه ويجوز على قول كثيرين أنها أربعين.. ولا يعرفه أحد؟!.

يا عالم ياهوه.. الرجل علامة من علامات شارع شريف وربما وسط البلد كلها ومع ذلك لا يعرفه أحد ويخمن الناس مكان سكنه؟!.

كل حاجياته يشتريها بنفسه وسمعه البقال مرة يتحدث بالإنجليزي – أو هكذا تصور – فظن أنه أجنبي!

لا.. إنه سوري فالسوريون يشبهون الأجانب وهو لاجئ سياسي ولم تكن معه أسرة ولا يحزنون وهو لذلك لا يتعامل مع أحد.

من هم جيرانه في العمارة؟!.

يا سلام.. ومن هذا الذي سوف يشغل نفسه في زحمة وسط البلد ليبحث عن جيرانه؟!.

ثم إن كل واحد هنا مشغول بمصالحه والغالبية يعملون في المكاتب والشركات والمحلات التي تكتظ بها عمارات وسط البلد.

العمارة الكبيرة لا تجد فيها سوى شقة أو شقتين مستخدمتين لغرض السكنى والباقي منها شركات، مكاتب سمسرة، محامون، عيادات، شركات، لوكاندات.. إلخ.. إلخ.. إلخ.

فمن هذا الذي يفرغ رأسه للبحث عن غيره؟!.

بالتأكيد له أصدقاء ومعارف، ولكن من هم؟

لا.. لا.. لا يمكن أن يكون هذا هو حال الرجل، أن يظل مجهولا إلى هذا الحد.

يا ربي كيف يمكن التصرف؟!.

وبدا وجهه حزينا غريبا وهو ملقى على الرصيف، يسيل من زاوية فمه اليمني رغاوي خفيفة ولا أثر لنقطة دم على رأسه أو في جبهته، لا أثر لإصابة واضحة!.

مات؟!.

نعم مات.

لا حول ولا قوة إلا بالله.

إنا لله وإنا إليه راجعون.

هذا حال الدنيا.

اتعظوا يا ناس.

نتصل بالإسعاف؟!.

أجاب أمين شـرطة المرور في تقاطع شـارع شـريف قائلا: لا.. سـيارة الإسعاف لا تنقل الموتى، عموما سوف أخطر القسم لاتخاذ الإجراءات.

. هل صدمته سيارة؟!.

كنا سـوف نرى أو نسـمع وعموما سـيارات وسـط البلد عندما تصـدم ؛ فصدمتها لا تميت بسبب بطء السيارات.

وكيف يمكن أن تصدمه سيارة وينزل سائقها ويضعه على الرصيف ولا يراه أحد؟!.

يا جماعة أنا رأيته يسقط من بعيد.

. ما اسمك؟.

_ مالك باسـمي أنا لم أر شـيئا.. هذه مسـئولية كبيرة وتدخلنا في سـين وجيم.. الرجل مات.. لو سألوني، فأنا لم أر شيئا وسأمضي لحالي.

. تعال هنا.

***

وذاب الشـاهد المجهول في وسـط الزحام وأخفته السـيارات المتوقفة في التقاطع ولم يكن عليه إلا العبور للرصـــيف المواجه حتى يفقد لـه أي أثر!.

يا ناس الدنيا حر وزحمة، أسـرعوا باسـتدعاء حانوتي، الميت إكرامه في دفنه والمنظر كئيب.

السيارات تزعق في الزحام الصباحي.

يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم.. ميت على الصـــبح؟!.. يوم مهبب وباين من أوله!.

***

الاسم . مجهول.

العمل . غير معلوم.

العنوان . لم يستدل عليه.

السن . في العقد الخامس أو السادس.

يرتدي تريننج سـوت ولا يحمل إثبات شـخصـية ولم يتعرف على جثته أحد وسبب الوفاة غالبا سكتة قلبية والوفاة طبيعية.

"صوت على اللاسلكي"

: تم رفع الجثة وفض الزحام والاشـــتباك المروري في التقاطع، أوشـــك على الانفراج بعد انتهاء ساعة الذروة الأولى.

– شكرا.. علم.. وسيتم الإخطار!.

الفهرس

١. ثورة درب عشرة..... ٥
٢. زواج على نفقة الدولة..... ١٧
٣. أنت تريد أن تسمع وأنا أريد أن أتكلم ٢٧
٤. وزيرة فى منتصف الليل ٤٧
٥. خالو يا خالو ٥٥
٦. عفريت في قصر النيل..... ٦٣
٧. الفضيحة حقيقية لكن سرية والشخصيات وهمية ٧٥
٨. لما سجدت صخور وادي مندي ٨٥
٩ – بنت للكبار فقط ٩١
١٠– "قالت لي الجدران"..... ١٠١
١١. كل هذا القبح بعد ميدان الكورية؟! ١٠٩
١٢. حركة وضاعة ١٢٣
١٣. أول معاد في وسط البلد ١٣٣
١٤– عشق عمر ١٣٩
١٥– نصف خيانة في الجريون ١٤٧
١٦– تقرير الأستاذ سري ١٥٩
١٧– هذه الخيانة يحميها القانون!..... ١٦٥
١٨– أوكار يعجز عنها الشيطان ١٧٣
١٩– تقاطع شريف..... ١٨٣